

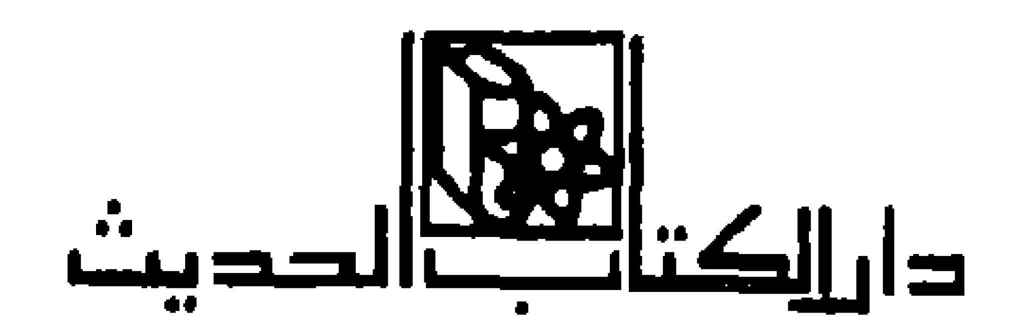
دار الكتاب الحديث

نمطية الصورة التشبيهية في الخطاب القرآني

د/ أحمد بلخضر
أستاذ محاضر[أ] بجامعة قاصدي مرباح
ورقلة - الجزائر

نمطية الصورة التشبيهية
فى
الخطاب القرآني

دكتور
أحمد بلخضر
أستاذ محاضر(أ) بجامعة قاصدى مرباح
ورقلة - الجزائر



بلخضر ، أحمد.

نمطية الصورة التشبيهية في الخطاب القرآني / أحمد بلخضر . ـ ط1 . ـ القاهرة : دار الكتاب الحديث ، 2012

120 ص ؛ 24 سم

تدمك :9 - 978-977-350-462

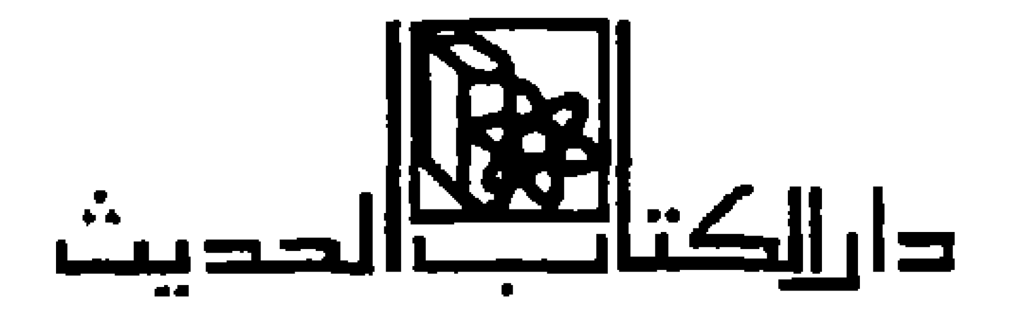
1- القرآن - بلاغة .   2- القرآن – ألفاظ .

أ ـ العنوان .

225

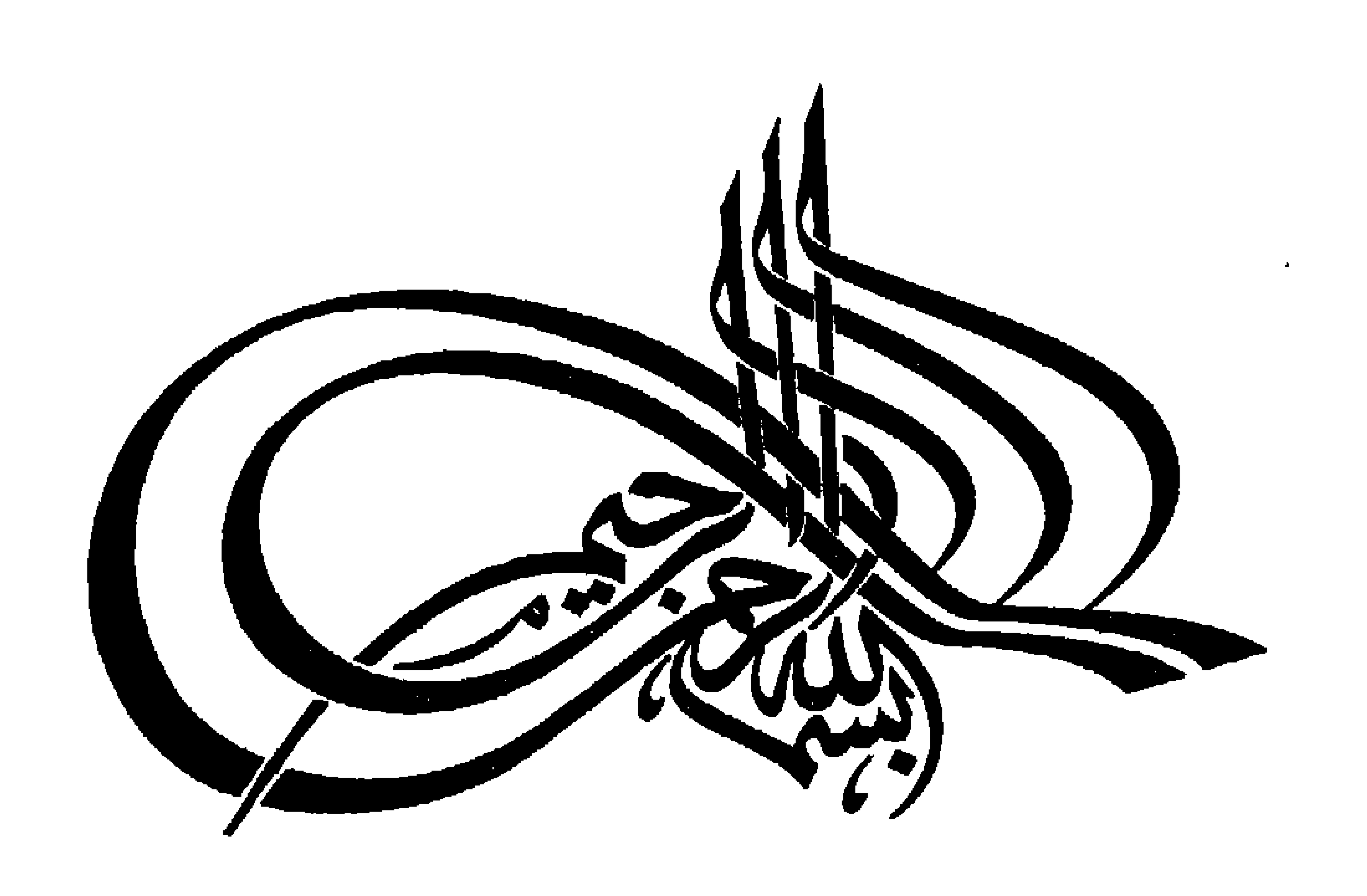
رقم الإيداع / 5466 /2012

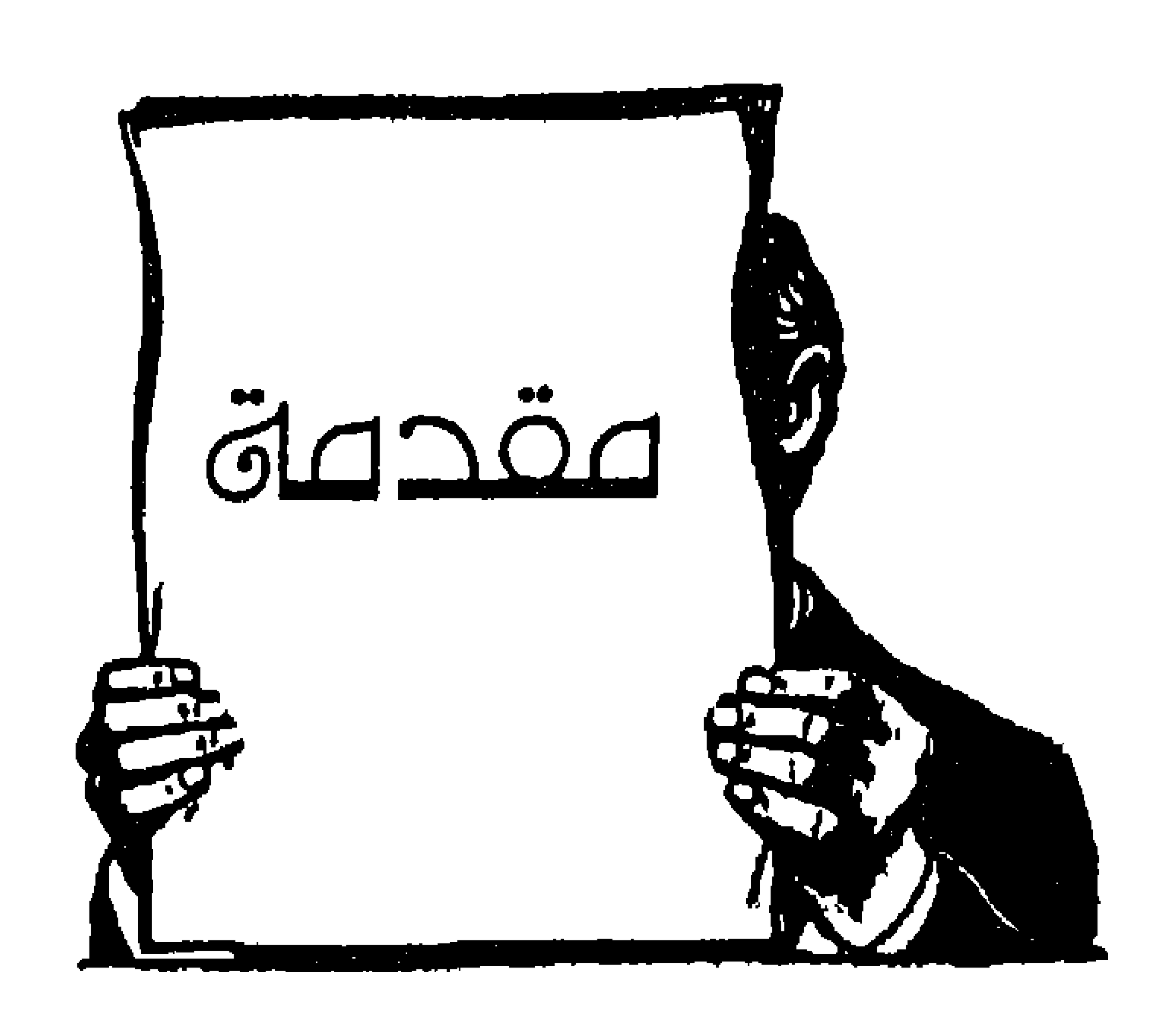
1434 هـ / 2013 م



www.dkhbooks.com

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger- Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dk.hadith@yahoo.fr


بسم الله الرحمن الرحيم



تعد طريقة التمثيل والتشبيه وسيلة هامة وشائعة من وسائل التواصل بين أفراد المجتمع الواحد، فلا يكاد يخلو كلام أي جماعة من الجماعات البشرية التي تعيش في بيئة واحدة، وتتكلم لغة موحدة -من هذه الوسيلة التعبيرية، سواء كانت حياتهم بسيطة بدوية، أم معقدة حضرية.

والناظر في أدبنا العربي شعره ونثره، يقف على كم هائل من هذه الأنماط التعبيرية التي تنم على قدرة العقل العربي في الربط بين عناصر الطبيعة من جهة، والسلوكيات الفردية والجماعية من جهة أخرى.

وقد قامت حول هذه الظاهرة الأسلوبية دراسات متنوعة، بدأت بصورة عامة في الطرح والمعالجة والتذوق، وانتهت باستخلاص النتائج وتحديد أهم الأنماط التعبيرية التي سلكها المتكلمون الأوائل من العرب في علاقاتهم التواصلية.

وبتعبير آخر فإنها - بعد معالجة ودراسة كم هائل من النصوص الشعرية والنثرية- توصلت هذه الدراسات إلى رصد الأنماط العامة لأسلوب التعبير المتواجد في خطابات الناس بعضهم بعضا.

إن رصد هذه الأنماط التعبيرية في كلام العرب لا يعد- كما يحلو للبعض تسميته- محمودا، بل هو نتيجة هامة لدراسات متعمقة لنصوص متنوعة المضامين ومختلفة الأزمنة والأمكنة.

والدراسات الأسلوبية الحديثة، - وإن كانت تصف هذه النتائج بالمعيارية- فإنها تعتمد عليها في دراسة الأنماط التعبيرية في صفتها المقاييس الأسلوبية القارة، والتي لابد منها لمعرفة الإبداعات الفردية في سياقاتها التعبيرية؛ أي أنها لا يمكن أن تعرف قيمة ما هو جديد، إلا بمعرفة ما هو قديم. والقديم هنا هو الإحاطة بطرق القدماء في نسج وربط معالم القول بما يضاهيها ويشابهها من سلوكيات قوليه وفعلية داخل النظام الجمعي في المجتمع الواحد.

وعليه فلا ضير إن وجدنا دارسي البلاغة وعلمائها يوقفوننا على طرق العرب في رسم صورهم التشبيهية ذات الطابع الفني، ويرون أنها لم تخرج عن الأساليب التعبيرية الآتية:

فالأسلوب الأول يُوظِّف فيه المتكلم – في نسج علمية المماثلة أو المشابهة – عناصر أربعة وهي: مشبه، ومشبه به، وأداة تشبيه، ووجه شبه. في مثل قولنا «وجه فلان يشبه القمر في الضياء». وهذه الصورة في نظرهم تمثل أبسط أنواع التعبير، لكونها تحتوي على تفصيل لا تترك للمستمع فرصة البحث وإجالة الفكر في الربط بين طرفي الصورة.

وأما الأسلوب الثاني فيكون فيه التعبير بترك طرف من أطراف الصورة الأربعة، وهو على لونين، ترك ذكر أداة التشبيه في مثل قولنا: »فلان بحر في الجود». أو ترك ذكر وجه الشبه، في مثل قولنا: «فلان كالأسد».

وأما الأسلوب الثالث فيكون بترك ركنيين من أركان الصورة، وهما الأداة ووجه الشبه. في مثل قولنا: «فلان ملاك».

وقد استقرت هذه الأساليب الثلاثة في كتب البلاغة على أنماط تعبيرية أربع، وبتعبير بلاغي في صور تشبيهية أربع.

وإذا كانت هذه أنماط التشبيه الأربعة، هي حوصلة لمخزون كلام العرب في معاملاتهم الحياتية، فإن النص القرآني الذي نزل بلغتهم لم يخرج عن هذه الطرق التعبيرية المألوفة عندهم في مخاطباتهم والتواصل معهم، فلو خالفهم فيما ألفوه لوجدوا صعوبة في التجاوب والتفاعل مع سياقاته التعبيرية، ومن ثم عدم فهمه وإدراك تعاليمه التي أراد توصيلها إليهم.

وعدم خروج أسلوب الخطاب القرآني عما ألفه العرب من أنماط تعبيرية، لا يعني بالضرورة التطابق والتماثل الكلي في رسم معالم الصورة البيانية والتشبيهية، بل توجد هناك فروق أسلوبية تحاول هذه الدراسة شرحها وتحليلها تحليلا أسلوبيا، بدءا بمعالجة التراكيب العامة لكل نمط من أنماط الصور، ثم التطرق إلى ما يتعلق بها من جزئيات تساهم في تبيان حقيقتها الوظيفية داخل الصورة التشبيهية.

ولم تخرج هذه الدراسة في هذا كلّه عما استقر في كتب البلاغة في جانبها النظري، من إفراد وتركيب وقلب ودلالة للألفاظ داخل الصورة التشبيهية.

والهدف في هذا هو وضع القارئ بعامة والمتخصص بخاصة، أمام حقيقة نمطية الصورة التشبيهية في القرآن الكريم بكل دقائقها وجزئياتها المساهمة في رسمها.

والقيام بهذه العملية ليست من السهولة بمكان الآن الأمر يتعلق بالنص القرآني لا بغيره من النصوص الأخرى، وعليه اتكأنا في تخريج كثير من الصور التشبيهية على كتب البلاغة، وعلى الخصوص كتب التفاسير المتنوعة.

وفي الختام الله نسأل أن يتقبل منا هذا الجهد لوجهه الكريم وأن يغفر لنا زلاتنا التي وقعنا فيها عند تخريجنا وتأويلنا لبعض الصور التشبيهية وهو الغفور الرحيم.

د-أحمد بلخضر

المبحث الأول

نمطية الصورة الأولى

تقل هذه الصورة وتندر في مجمل الأعمال الأدبية الفنية - شعرية كانت أم نثرية - وترجع الأسباب حسب اجتهادنا إلى بساطة هذه الصورة، وذلك لاعتمادها على التفصيل في التصريح بالأركان الأربعة (المشبه والمشبه به والأداة ووجه الشبه). والملاحظة نفسها تنطبق على نماذج هذه الصورة في القرآن الكريم، مع اختلاف في طريقة التصريح بوجه الشبه، أي في العلاقة الرابطة بين المشبه والمشبه به، فقد اعتدنا أن تأتي عناصر هذه الصورة على إحدى الطريقتين:

الأولى: أن يُسبق فيها التصريح بوجه الشبه أداة من أدوات الجر، وهي على وجه الشيوع حرف (في) كأن نقول: (محمد كالأسد في الشجاعة).

الثانية: أن يُصرح فيها بوجه الشبه على أسلوب الخبرية، كأن نقول مثلا:(محمد كالأسد شجاعة).

وهذا ما يمكن ملاحظته في الأمثلة الشعرية والنثرية لهذه الصورة، وذلك لوجود فاصل لفظي يجعل الصورة التشبيهية تستقل لذاتها دون انتظار التصريح بوجه الشبه، وينطبق هذا الأمر على جل أنماط هذه الصورة التي تم حصرها من بين تشبيهات القرآن الكريم، وستتعرف على مدى صحة هذه الملاحظة من خلال مناقشتنا لبعض هذه النماذج. وللتمثيل لذلك نأخذ قوله تعالى في وصف قلوب بني إسرائيل الذين أمروا بذبح البقرة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ...﴿٧٤﴾﴾[البقرة] حيث نجد الصورة التشبيهية في هذه الآية محددة بجملة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾، لأن ضمير الرفع المنفصل (هي) يمثل القلوب التي سبق ذكرها في بداية الآية، وهي المشبه، وأما (الكاف) فهي أداة من أدوات التشبيه، وأما (الحجارة) فهي الجهة المقابلة للقلوب، وهي المشبه به. فهذه صورة تشبيهيه قائمة بذاتها مع انعدام ذكر وجه الشبه. وإذا بحثنا عن العلاقة القائمة بين قلوب بني إسرائيل الذين عاندوا في ذبح البقرة، وبين

الحجارة بوجه عام لما وجدنا أمامنا سوى صفة القسوة. وإذا كان الأمر كذلك فأن الآية الكريمة ذكرت هذه الصفة (القسوة) في بداية الآية وفي نهايتها. فإذا افترضنا أن اللفظة الأولى هي المناسبة لتكون وجه الشبه،وبالتالي يكون سياق الصورة التشبيهية كالأتي: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ..﴿٧٤﴾﴾ [البقرة].وبهذه الكيفية يكون وجه الشبه المتمثل في فعل: (قست) المبني للماضي في وضعية المشبه المتعلق بالقلوب في مقابل الحجارة. وهذا التعبير يتطلب وجه شبه آخر يتمثل في قوة الصفة أو ضعفها، لأن المألوف في التشبيهات المبدوءة بفعل ماض يبنى فيها وجه الشبه على حالة الصفة، ويكون السياق فيها على العموم كالآتي: (جاهد محمد جهاد الأبطال، وفاز الجيش فوز الأبطال، وقست قلوب القوم قسوة الحجارة). وهنا يكون وجه الشبه محذوفا يتعلق بقوة صفة الجهاد، وصفة الفوز، وصفة القسوة، قسوة الحجارة كما هو الحال في الآية.

وأما إذا افترضنا أن اللفظة الثانية هي المناسبة لأن تكون وجه الشبه، فإن سياق الصورة التشبيهية يكون تاما كما جاء في الآية: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ...﴿٧٤﴾﴾ [البقرة] فلفظة القسوة الأخيرة جاءت منفصلة عن الصورة التشبيهية (فهي كالحجارة) بفاصلين لفظيين هما أداة التخيير (أو) ولفظة (أشد) التي تدل على المفاضلة، الشيء الذي يجعل صفة (القسوة) تعني طبيعة المفاضلة بين القلوب والحجارة، وهي بذلك تنوب مناب وجه الشبه، أو هي وجه الشبه في حد ذاتها، لأن التعبير في السياق العادي يكون «والله أعلم» بهذه الكيفية: (قلوب بني إسرائيل كالحجارة في القسوة أو أشد من ذلك) وبهذه الكيفية تكون هذه الصفة (قسوة) هي التي تؤدي دور وجه الشبه أكثر من سابقتيها.

الأمر نفسه ينطبق على وجه الشبه المذكور في الصورة التشبيهية الموالية في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ...﴿٧٧﴾﴾ [النحل]. فقوله تعالى (أو هو أقرب) يدل على أن صفة القرب هي التي أشارت إليها أداة التشبيه (الكاف)، فبدلاً من أن يصرح بوجه الشبه تصريحاً عادياً كأن يقال: (إن قيام الساعة يشبه حركة لمح البصر في القرب) جيء بفعل من أفعال التفضيل (أقرب) لينوب مناب وجه الشبه (القرب) بطريقة فنية لمّاحة.

وإذا انتقلنا إلى مناقشة مثال آخر من أمثلة هذا النوع نأخذ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف]. نلاحظ أن هذه الصورة التشبيهية كسابقاتها لا نجد فيها وجه شبه مصرح به تصريحاً عادياً، ولكن نتوصل إليه عن طريق محاورة جملة التفضيل ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾؛ لأن المفاضلة لا تكون إلا إذا ذكرت صفة المفاضلة، فلفظة (أضل) دلت على أن المفاضلة كانت في الضلالة، وزادت في طرف دون آخر، فهؤلاء القوم يشبهون الأنعام في الضلالة، بل هم أشد ضلالة منها، وعلى هذا الأساس تكون لفظة (أضل) هي وجه الشبه في حالة التصريح به في السياق اللفظي العادي: (هؤلاء القوم يشبهون الأنعام في الضلالة بل هم أضل منها). ونجد هذه العلاقة التشبيهية (الضلالة) تتكرر بنفس الطريقة في صورة تشبيهية أخرى من قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾ [الفرقان] ولكن (الضلالة) هنا فسّرت بلفظة (سبيلا) دلالة على أنها وجه الشبه الذي يربط بين هؤلاء القوم وبين الأنعام، مع طفو هذه الصفة في المشبه أكثر من المشبه به، وهي زيادة في التخصيص. ويقترب من هذا المثال آخر تظهره ألفاظ الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [العنكبوت]. ولتحديد عناصر هذه الصورة التشبيهية نقول: إن المشبه هنا مركب من المشركين والأولياء، والمشبه به مركب من العنكبوت وبيتها، والأداة هي (الكاف) بينما وجه الشبه وهو الذي يبدو للوهلة الأولى غير موجود؛ لأن الصورة التشبيهية كما هي في الآية تنتهي عند قوله تعالى: ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، غير أن الجملة الاستئنافية المؤكدة (بأن) والمتضمنة لمعنى التفضيل الذي تحمله لفظة (أوهن)- تدل على أن الصفة المراد ربطها بين لجوء المشركين للأولياء من دون الله، وبين اتخاذ العنكبوت بيتا تسكن فيه- هي (الوهن) التي تدل على ضعف الملجأ، ولكن هذه المرة يقوى وجه الشبه في المشبه به أكثر من المشبه خلافا للصورة التشبيهية السابقة.

تعد الأمثلة السابقة متقاربة في التصريح بوجه الشبه، إذا ما قوبلت بالأمثلة الآتية في نفس الغرض، وللتمثيل لذلك نأخذ قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ

﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء] تبنى الصورة التشبيهية في هذه الآيات القرآنية على تشبيه حالة بحالة؛ فأما الحالة الأولى: وهيَ (المشبه) تؤكد حالة الإنسان الذي لم يكن له نصيبٌ فيما أصاب القوم من فضل بعد تخلفه عنهم، وأما الحالة الثانية؛ وهي (المشبه به) فإنها تبين حالة الإنسان الذي لم تسبق له مودة ومعرفة بهؤلاء القوم، وقد ربطت هاتان الحالتان بأداة التشبيه (كأن)؛ وأما وجه المماثلة فإننا لا نصل اليه بالطريقة المألوفة، ولعل هذا ما أشار إليه صاحب التحرير في تحديده لوجه الشبه: {{..أنه لما تمنى أن لو كان معهم، وتحسر على فوات فوزه لو حضر معهم}}[1]. وهذا المعنى نتوصل إليه عن طريق جملة التحسر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾﴾ . فإن هذا القول المصرح به لا يحدث إلا من إنسان لم تكن له صلة بهؤلاء القوم، وأما صاحبه أي (القول) فقد كانت له صلة وثيقة بهم ولكنه تأخر عنهم، وبالتالي لقد تشابه معه في هذه المقولة، وعليه تكون هذه الجملة الأخيرة بمثابة وجه الشبه الذي يربط بين هذين الطرفين المتقابلين.

وآخر مثال لهذه النوعية نجده مجسدا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران]. من الواضح أن هذه الآية قد أشارت إلى العلاقة القائمة بين خلق عيسى وخلق آدم بالنسبة إلى قدرة الله، فالقدرة التي استطاعت أن تخلق آدم من تراب ثم تنفخ فيه وتقول له كن فيصير إنسانا، قادرة على ما هو أقل منه صعوبة في الخلق، وهو أن تخلق إنسانا من امرأة دون أن يمسها إنسان. وبهذا تكون العلاقة واضحة وهي الاستطاعة الآمرة، والتي تمثلها عبارة ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ إذا فالكينونة الآمرة والمُنفِّذة هي وجه الشبه الذي يجمع بين العمليتين؛ عملية خلق عيسى، وخلق آدم وهذا ما يؤده قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم].

---

(1) التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- الدار التونسية للنشر- المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر-1989م -ج3-ص263.

من خلال مناقشتنا لما تقدم من أمثلة تبين لنا أنها تخضع لمقاييس الصورة التشبيهية الأولى، وهذا الأمر سيتيح لنا البحث عن الأنواع التي وردت من خلالها هذه الأمثلة التشبيهية القرآنية:

النوع الأول: الإفراد

إذا تتبعنا هذه النوعية الفردية في الأمثلة القرآنية السابقة وجدناها تبرز في معظمها من بين مجموعها العام، وقد تراوحت هذه النوعية بين الإفراد المطلق والمتعدد دون الإفراد القيد.

1- المطلق: ومن أمثلة هذا النوع ما نجده في المثال السابق من قوله تعالى واصفا قلوب بني إسرائيل بالقسوة، ﴿...فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ..﴿٧٤﴾﴾ [البقرة]. فالإفراد اللفظي واضح في الضمير العائد على القلوب (هي)، وكذا في(الحجارة) المقابلة لهذه القلوب، وكلا الطرفين لم يسبقا بأي قيد لفظي يوجه وضعيتهما داخل إطار الصورة التشبيهية. والأمر نفسه ينطبق على المثال الموالي في قوله تعالى: ﴿...وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ..﴿٧٧﴾﴾ [النمل]. فالطرف الأول يتكون من لفظتي (الأمر والساعة)، وهما معا يؤديان أحادية الحدث، حدث الساعة. وهذا الحدث مطلق لم يتبع بأي قيد لفظي يحد من علاقته، وكذا الطرف الثاني يتكون من اتحاد لفظتي (اللمح والبصر) في تأدية معنى واحد وهو سرعة الحركة، حركة البصر؛ وهذه الحركة هي الأخرى لم تقيد بأي صفة تحدد لها قوتها ولا طريقة سرعتها.

2- المتعدد: لم نعثر من خلال النماذج التي بين أيدينا على صورة تشبيهية ذات فردية متعددة في الطرفين المتقابلين، والتعدد الذي نجده في هذه النماذج يكون في طرف واحد فقط. كما هو الحال في تعدد لفظتي (الجن والإنس) وما تبعتهما من خصائص فسيولوجية متعددة مثل (لا يفقهون، ولا يبصرون، ولا يسمعون). في مقابل طرف واحد مفرد غير متعدد والمتمثل في لفظة (النعام) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف] في الآية السابقة. والتعدد نفسه يتكرر في

مثال آخر ولكن بكيفية مغايرة إذ تتعدد بعض الصفات الفسيولوجية لموصوف واحد بدلا من موصوفين كما مر في المثال السابق وفي طرف واحد من الصورة التشبيهية وهذه الصفات هي (يسمعون، يعقلون)، والمتعلقة بالكفار والمشركين في مقابل طرف واحد (الأنعام) الآية السابقة. وهذا الطرف كما هو واضح مفرد غير متعدد الصفات.

وبهذا يمكننا القول أن التعدد في هذه النماذج القرآنية يختلف شكلا عن التعدد في الأمثلة العادية شعرية أو نثرية لأن وجه الاختلاف يكمن في أن التعدد هنا تجاوز الأطراف إلى الصفات بينما التعدد المعهود يكون إما في الأطراف، أو في أوجه الشبه، إذا فالتعدد اكتفى بالطرف الأول من الصورة وتقابل مع المفرد المطلق في الطرف الثاني منها وكل هذا مندرج تحت الإفراد في النوع الأول.

النوع الثاني: التركيب:

إن التصريح بوجه الشبه يعوق عملية التركيب؛ والتي بدورها تقلل من تواجد أنماط هذه الصورة في الشعر والنثر وكذا القرآن الكريم، إذا أن قلة هذه النوعية ارتبطت جدليا بقلة الصورة الأولى بعامة في نماذجه التشبيهية، وعلى هذا الأساس سنكتفي بما عرضناه من نماذج سابقة للتدليل على هذا النوع المركب بفرعيه المزجي والتقابلي.

1- **التركيب المزجي**: ويتمثل هذا النوع-حسب النماذج السابقة- في تشبيه حالة بأخرى، ويبرز جليا في قوله تعالى واصفا حالة المنافق المتحسر عن عدم صحبته المسلمين في ساعة النصر عند جمع الغنائم، بحالة الإنسان الذي لم تكن بينه وبين هؤلاء المسلمين مودة أو معرفة سابقة،﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [النساء]. وهذه الحالة تنطبق على جل المنافقين، وفي هذا قال أحدهم: {{وشبَّه حالهم بحال من لم تسبق بينه الخاطبين مودة حقيقة أو صورية، فاقتضى التشبيه أنه كان بينه وبينهم مودة من قبل هذا القول}}[1]. والحالة نفسها تنطبق على الصورة التشبيهية التي جمعت بين عمليتي (خلق عيسى وخلق آدم) في الآية السابقة، لأن كلا العمليتين تمَّتْ بكلمة (كن) والجامع بينهما: {{محل التمثيل كون

(1) التحرير والتنوير- المصدر السابق -ج5-ص120

كليهما خلق من دون أب}}[1]، ولكن بطريقتين مختلفتين؛ تجسدت الأولى في القصة الطويلة التي حدثت لمريم (عليها السلام) في عملية الحمل الذي حملته ووضعته دون أن يمسها أحد من البشر، وذلك كله بإرادة الله ومشيئته. والثانية تمثلت في العملية التي تم بها خلق آدم من طين، ثم عملية نفخ الروح فيه فصار بذلك إنسانا بلحم ودم وهذا ما لخصته ألفاظ هذه الصورة التشبيهية في الربط بين العمليتين.

2- التركيب التقابلي: نريد القول بأن المراد بهذا التركيب هو ما يمكن المقابلة فيه بين أجزاء الطرفين بواسطة علاقة تجمعها. ولم نجد في مجموع الأمثلة السابقة لهذا النوع إلا صورة واحدة تمثلت فيها خاصية المقابلة بين أجزاء طرفيها. ويمكننا أن نلحظ ذلك في المثال الموالي من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ ...﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت] فالمشبه المكون من (المشركين والأولياء) يقابل المشبه به المركب من (العنكبوت وبيتها)، والعلاقة الجامعة بين الطرفين هي (الوهن) في كل منهما. وفي الوقت نفسه يمكن أن نقابل بين (المشركين) من الطرف الأول وبين (العنكبوت) من الطرف الثاني، وذلك في الغباء وضعف التدبير، وكذلك الأمر بين (الأولياء) و(البيت) من كلا الطرفين، في عدم دفع الضرر. وهذا يخول لنا القول بأن التركيب هنا في هذه الصورة تركيب تقابلي، غير أن المراد من إقامة العلاقة التشبيهية هو التركيب الكلي؛ سواء داخل الطرف الواحد أو الطرفين معا، فالأساس إذا هو التركيب وليست التجزئة مع صحة إقامتها في مقابلة الأجزاء بعضها بالبعض الآخر. وإذا كان حديثنا عن التركيب التقابلي- باعتباره آخر محطة للنوع الثاني- قد استنفذ الأمثلة التشبيهية القرآنية التي بين أيدينا، ننتقل إلى تقصي نماذج النوع الثالث.

النوع الثالث: القلب أو العكس:

لقد قيل: {{إن من شرطِ بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم}}[2]، وأما إذا تم عكس ذلك بأن يشبه الأكبر بالأصغر يسمى التشبيه معكوسا، ويكون هذا

---

(1) المصدر نفسه-ج3-ص263.

(2) المثل السائر - ابن الأثير- تقديم وتحقيق وشرح أحمد الحوفي وبدوي طبانة- منشورات دار الرفاعي الرياض-1403هـ-1983م-م2 -ص 132.

العكس صحيحا ومقبولا إذا كان المعكوس مألوفا عند الناس، جرت العادة بأن يشبه شيء ما بشيء آخر في خصائص معينة، ثم يأتي شاعر أو أديب فيقلب المشبه به مشبها، أو العكس. وإذا بحثنا عن هذه النوعية العكسية بحسب ما تعارف عليه الناس، فإننا لا نجد لها مثالا واحدا ضمن النماذج التشبيهية القرآنية التي بين أيدينا لهذه الصورة التشبيهية الأولى التامة الأركان. وإذا كنا لم نوفق في إيجاد أمثلة تشبيهيه قرآنية لهذه النوعية الثالثة فإننا نتحول إلى معالجة النوعية الرابعة والأخيرة والتي تتعلق بالجانب الدلالي لألفاظ الصورة التشبيهية السابقة.

النوع الرابع: الجانب الدلالي للألفاظ:

من الطبيعي أن تحمل ألفاظ هذه الصورة التشبيهية معنيين: إما الحسي، وإما معنوي عقلي، أو هما معا؛ ويكون ذلك متمثلا في إقامة العلاقة التشبيهية بين طرفي الصورة.

1- الدلالة الحسية: وإذا حللنا الأمثلة التشبيهية التي بين أيدينا - لهذه الصورة الأولى- لوجدنا أن الجانب الحسي يبرز في معظمها وعلى الخصوص في الطرف الثاني من الصورة (المشبه به)، ومن أمثلة ذلك ألفاظ كل من ﴿...ٱلْحِجَارَةِ...﴿٧٤﴾﴾ [البقرة]. و﴿...كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ...﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران] وكذا ﴿...كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ...﴿١٧٩﴾﴾ ﴿...كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ...﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف، الفرقان] و﴿...كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ...﴿٧٧﴾﴾ [النحل] و﴿...ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا...﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت]. وهذا طبيعي جدا في التشبيه لأن من بين مهامه على تقسيم العسكري: {{...أحدهما إخراج ما لا تقع عليه الحاسة...فأخرج ما لا يُحس إلى ما يُحس...}}[1]؛ أي تشبيه المعقول بالمحسوس في قاموس المتأخرين، وهو أن تخضع ألفاظ الطرف الثاني من الصورة إلى معاينة إحدى الحواس الخمسة المعروفة. وهذا ما ينطبق على الألفاظ السابقة بوضوح تام ماعدا الألفاظ المتعلقة بعملية خلق آدم من تراب فإننا لم نشاهد العملية معاينة عينية، وهنا يمكن أن يسأل سائل فيقول: كيف أخضعتم هذه العملية إلى الإدراك الحسي؟ مع كونها تمت قبل أن يخلق الكون، أو بالأحرى قبل أن تخلق؟ وللإجابة عن

(1) الصناعتان- أبو هلال العسكري- تحقيق مفيد دار الكتب العلمية بيروت-1404-1981-ط3 - الباب لسابع- فصل1 - ص262.

هذا التساؤل نقول: إنه ليس من الضروري أن نرى الأشياء أو نلمسها، أو نشمها، أو نتذوقها، حتى نحكم عليها بأنها تخضع للحس، لأننا قد نسمع عنها فنصدق ما سمعناه إذا كنا على يقين بصدق مصدر القول، لأنه لا يمكن أن نُخضع كل شيء للمعاينة والتجربة. وبهذا تعد الحركة الفعلية لهذه العملية (خلق آدم من تراب) خاضعة لحاسة السمع دون غيرها من الحواس. وإذا كانت الناحية الحسية هي طبيعة ألفاظ الطرف الثاني (المشبه به) في الصور التشبيهية السابقة، فما طبيعة الألفاظ المقابلة لها من الطرف الأول (المشبه)؟.

2- الدلالة المعنوية: إذا كان وضوح الجانب الحسي يكتنف طبيعة ألفاظ المشبه به في الصورة التشبيهية السابقة، فإننا لا نجد هذا الوضوح في طبيعة ألفاظ المشبه من الصورة نفسها، ويمكن إرجاع ذلك إلى عدم استقلالية لفظة بعينها في أداء العلاقة القائمة بين طرفي التشبيه؛ فلو أخذنا على سبيل المثال ألفاظ الطرف الأول من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم...﴿٧٤﴾﴾ [البقرة] المقابلة لـ(الحجارة)، وقلنا: إن القلوب شيء مادي يمكن أن يُرى ويُلمس، فهو يخضع لحاسة البصر واللمس، ولكن هل هذا هو المراد من إقامة الصورة التشبيهية؟أم أن المقصود من هذا هو النتائج والأفعال التي كانت تصدر من هؤلاء الناس؟. وإذا كان الأمر الأخير هو المراد، فالجانب العقلي هو الذي يميز طبيعة الأفعال والأقوال التي تنتج عن طبيعة قساوة القلوب، ومن هنا يمكن القول بأن لفظة القلوب دلت على شيء مادي يحمل في طياته شيئا معنويا، وهو المراد من إقامة الصورة التشبيهية، لأنها جاءت لتؤكد طبيعة بني إسرائيل: {{في تاريخهم الحافل بالكفر والتكذيب والالتواء واللجاجة، والكيد، والدس، والقسوة، والجدب، والتمرد والفسوق...}}[1]. إذا فالنوعية الحسية التي حملتها لفظة (القلوب) ليست هي الخاضعة لمقياس القسوة، بل ما ينتج عنها هو الذي يمكن أن يُعايَن بمثل هذه الصفة قوة أو ضعفا. ولتوضيح هذا الجانب أكثر نحلل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ...﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]. هذه الألفاظ تشترك في الأخير مع الأنعام في

(1) في ظلال القرآن–سيد قطب– دار الشروق–1406هـ–ط11– م1–ج1– ص80–81.

العلاقة المتمثلة في الضلال -كما سبق القول- ولكن هل هذا المعنى الحسي الظاهر هو الذي يؤدي هذه العلاقة؟ أم أن المراد من ذلك هو المعنى الخفي الذي يفهم بالعقل دون إخضاعه للحس العادي؟ الظاهر على هذه الألفاظ أنها تحمل دلالة مادية لها كيانها الخاص في هذا الوجود، وهي تؤدي في الظاهر المعنى الحسي المعروف، ولكنها في هذا السياق القرآني قُيِّدت بألفاظ أخرى أخرجتها من طبيعتها الحسية وجعلتها تؤدي معنى غير حسي يدرك بواسطة العقل، ونمثل لذلك بلفظة (القلوب) التي تلتها عبارة ﴿...لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا...﴾ وهي صفة دلت على عدم الانتفاع بهذه القلوب، وبالتالي خرجت لفظة (القلوب) عن مجال المادة إلى ما وراء المادة، ويتمثل في التصرفات الدالة على مرض هذه القلوب، وهكذا الأمر ينطبق على كل من لفظتي (الأعين، والآذان) وهي في مجملها تؤدي معنى واحدا هو (الضلال) الذي اتصف به هؤلاء القوم، وهو شيء معنوي يفهم بواسطة العقل.

وبهذه الكيفية التحليلية يمكن أن نتناول ألفاظ الأمثلة الأخرى للطرف الأول من الصور المتبقية، باستثناء مثالين اثنين، المثال الأول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ...(٥٩)﴾ [آل عمران] والثاني: ﴿...وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ...(٧٧)﴾ [النحل]؛ ففي الأول دلت الألفاظ على حادثة وقعت فعلا وهي ولادة عيسى عليه السلام بدون أب، وهذا الأمر يعد حقيقة شاهدتها جماعة من الحاضرين بعد ولادته، ثم نقلت إلينا عن طريق السماع،و القرآن الكريم يستخدمها هنا على أساس أنها معلومات عند هؤلاء المنكرين الجاحدين المشككين في هذه الولادة، فشبهها بحادثة أخرى هي أغرب منها، وتتمثل في خلق آدم من تراب. وبهذا تكون هذه الألفاظ قد أدت معنى حسيا يدرك بواسطة السمع. وأما ألفاظ المثال الثاني والتي تتعلق بيوم القيامة عبر عنها القرآن الكريم بقيام الساعة، والساعة المعروفة عندنا هي فترة من الوقت. وتستخدم هذه اللفظة (ساعة) للدلالة على دخول الوقت. والساعة التي يريد القرآن توضيحها: (بلمح البصر) ليست الساعة العادية، ولكنها ساعة أخرى تدل على نهاية العالم هذا، وبداية عالم جديد، وبالتالي فهي تدل على بداية زمن جديد لم يحن بعد، ولكن رغم هذا فهي تدخل في إطار حيز من الوقت القصير عُبِّر عنه ب (لمح البصر) في

سرعة الحركة. وعلى هذا الأساس يمكن أن نلتمس المعنى الحسي لهذه الألفاظ أكثر من غيره،لأن لفظة (الساعة) دلت ببعديها القريب والبعيد على الزمن الذي يمكن أن يخضع لمقاييس الزمن.

وإذا جئنا للبحث عن طبيعة العلاقة الرابطة بين طرفي الصورة التشبيهية في إطار الدلالتين الحسية والمعنوية لوجدنا أن ما كان طرفاه يخضعان للحس كانت العلاقة الجامعة بينهما حسية؛ كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿...وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ...﴿٧٧﴾﴾[النحل] فلفظة (القرب) هنا تحمل المعنى الزمني، وبالتالي فهي تخضع للمعاينة المادية المحسوسة. وأما ما كان طرفاه يخضعان للعقل دون الحس، فالعلاقة بينهما تكون خاضعة للاستنتاج العقلي الخالي من الجوانب التي تدركها الحواس العادية. وهذا ما لم نعثر عليه في إطار الأمثلة السابقة. وأما ما كان أحد طرفيه يخضع للإدراك الحسي، والآخر يخضع للإدراك العقلي، فإن العلاقة بينهما تكون خاضعة للإدراك العقلي، وهذا ما هو ملاحظ من خلال ما تقدم من أمثلة؛ ففي قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان] فصفات عدم السمع وعدم العقل هنا غير محسوسة، قابلتها لفظة (الأنعام) وهي محسوسة، وربطت بينهما لفظة (الضلالة)، وهي صفة غير محسوسة تدرك بواسطة الاستنتاج العقلي.

بهذه الطريقة التطبيقية يمكننا إدارك الدلالتين الحسية والمعنوية في الأمثلة القرآنية التي تخضع لمقاييس الصورة الأولى من صور التشبيه.

المبحث الثاني

نمطية الصورة الثانية

تندر هذه الصورة في تشبيهات القرآن الكريم أكثر من سابقتها، والدليل على ذلك أننا لم نعثر إلا على مثال واحد لها من خلال ما تجمع لدينا من مجموع تشبيهات القرآن الكريم. وإلى جانب هذه الندرة نجد أن نفس الملاحظة التي تعلقت بطريقة التصريح بوجه الشبه في الصورة الأولى تنطبق على هذه الصورة الثانية، ويمكننا أن نتبين ذلك من خلال معالجتنا لقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء] ولمعرفة وجه الشبه يجب أن نضع هذه الصورة التشبيهية في الميزان من خلال أقوال بعض المفسرين لهذه الآية، فقد جاء في روح المعاني: {{أي دعاء كدعائه فحذف الموصوف وحرف التشبيه وانتصب المجرور على المصدرية وهو مراد من قال: مثل دعائه(بالخير) فرضا لا تحقيقا}}[1]. وورد في الجامع لأحكام القرآن: {{أي كدعائه ربه أن يهب له العافية}}[2]. لقد أشار المفسر الأول إلى المشبه وهو (الدعاء الأول)، وإلى المشبه به ((الدعاء الثاني)) المتعلق بالخير، واكتفى المفسر الثاني بالإشارة إلى المشبه به عن طريق تفسير معناه، وهو الدعاء بالعافية، ولكنهما أهملا وجه الشبه، أي العلاقة الرابطة بين المشبهين التي لم يهملها صاحب التحرير في قوله:{{وقوله (دعاء بالخير) مصدر يفيد التشبيه، أي يستعجل بالشر كاستعجاله بالخير، يعني يستبطئ حلول الوعيد كما يستبطئ أحدنا تأخر خير وعد به}}[3]. إذاً فالاستعجال الذي ورد في هذا التفسير يؤكد أن لفظة (عجولا) التي وردت في جملة العطف التابعة للصورة التشبيهية ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾هي العلاقة التي تربط بين دعائَي الإنسان بتحقيق الخير والشر، وهي وجه الشبه الذي نميل إليه في رسم هذه الصورة التشبيهية. وبهذا نستطيع القول: بأن التطابق اللفظي الذي ورد في بعض عناصر الصورة

---

(1) روح المعاني- محمد الألوسي البغدادي- دار الفكر بيروت -1403-1983م-م5-ج15-ص23.

(2) الجامع لأحكام القرآن- القرطبي- دار إحياء التراث العربي بيروت -1966م-م5-ج10-ص225.

(3) التحرير والتنوير- المصدر السابق-ج15-ص42.

لا يعني التطابق المعنوي لأنه لو صح هذا لخرج التشبيه عن فنيته إلى الحقيقة، وعليه يكون الأمر تشابها حقيقيا لا تشابها فنيا. ومما يُغلِّب الجانب الفني في هذه الصورة التشبيهية، أن الدعاء الأول يختلف لفظا ومعنى عن الدعاء الثاني كما جاء في التفسير السابق: {{...فرضا لا تحقيقا}}[1].

فالفرضية يمكن أن تفسر على أنها الطريقة أو الكيفية التي استخدمت في طلب حلول الخير والشر، وهي على وجه التقريب (العجلة) التي يتصف بها الإنسان مصدقا لقوله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء]. وإذا صحت لدينا الناحية الفنية لهذه الصورة التشبيهية في إطار الصورة الثانية، يتعين علينا التطرق إلى الأنواع التي وردت من خلالها هذه الصورة.

تفرض علينا وحدوية هذه الصورة في القرآن الكريم عدم التطرق إلى جميع الأنواع، لأنه لا يعقل أن تحتويها جميعا. ومن هنا سنكتفي بتناول الأنواع التي تمثلتها.

النوع الأول: الإفراد

إن التصريح بوجه الشبه يجعل الإفراد في اللفظ هو السمة المميزة للصورتين: الأولى والثانية؛ ففي قوله تعالى السالف الذكر: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ﴿٨﴾ ﴾ [الإسراء]. نجد الطرف الأول للصورة التشبيهية يتكون من ثلاثة ألفاظ هي: (الدعاء، الإنسان، الشر) بينما احتوى الطرف الثاني لفظتي (الدعاء، الخير) مع وجود ضمير يعود على الإنسان المتصل بلفظة (دعاءه)؛ إذاً فعنصر الإنسان قد تكرر في طرفي الصورة، وتكرره هذا لا يدل على تنوعه فيهما، فالمصدر واحد ثابت لم يتغير. وكذلك الأمر مع لفظة (الدعاء) فقد تكررت هي الأخرى مرتين. وهذا يعني أنها تمت بطريقة واحدة في كلا الطرفين ولكن الشيء الذي يبدو متغيرا في طرفي هذه الصورة هو طبيعة الدعاء؛ فنوعية الأول: (شرا) ونوعية الثانية (خيرا).

وانطلاقًا من هذا التحليل نستطيع أن نوحد بين مصدر القول في كلا الطرفين وهو(الإنسان)، ثم نوحد بين القول وهو (الدعاء) وبين طبيعتة الشريرة في الطرف الأول،

(1) روح المعاني -المصدر السابق- م5-ج15-ص23.

وبينه وبين طبيعته الخيِّرة في الطرف الثاني. وبهذا تكون فردية هذه الصورة مكونة من عنصرين أساسيين هما (الإنسان، الدعاء، بنوعيه). وهذه الفردية المكونة من لفظتين لا نستطيع الاستغناء بلفظة بعينها عن باقي الألفاظ الأخرى في رسم الصورة التشبيهية، فالدعاء لابد أن يرتبط بالإنسان، وكذلك الخير والشر لابد أن يرتبطا بالدعاء لأنهما عنصران أساسيان في الصورة، لأننا لا يمكن أن نقف عند عبارة (ويدع الإنسان) في الطرف الأول ثم نقابله بلفظة (دعاءه) في الطرف الثاني، فالكلام يبقى مبتورا لا يؤدي المعنى المطلوب إلى ذهن السامع.

نفهم مما تقدم أن نوع الإفراد هو الذي ميَّز ألفاظ طرفي هذه الصورة التشبيهية مع انعدام النوعين الثاني (المركب) والثالث (القلب أو العكس). وهذا ما سيجعلنا ننتقل إلى معالجة النوع الرابع والأخير.

النوع الرابع: الجانب الدلالي

إذا تتبعنا طبيعة ألفاظ هذه الصورة وجدناها تؤدي دلالات معنوية تخضع في مجملها إلى الإدراك العقلي، فمثلا لو حذفنا لفظة (الدعاء) مجردة بأنواعها فإننا لا نستطيع إخضاعها للإدراك الحسي العادي عن طريق الحواس الخمسة - لأن الدعاء إلى جانب كونه داخليا مضمرا أو خارجيا مجهرا- طريقة معينة لها معاني وأساليب مميزة تستخدم في توظيف الصوت توظيفا يختلف عن باقي الأصوات الأخرى. ولهذا فهو يخضع في الفهم إلى الجانب العقلي. والأمر نفسه ينطبق على لفظتي: (الشر والخير) فكلاهما لا يقدر إلا بالميزان العقلي بحسب ما تعارف عليه العقل الجمعي في كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية.

وختاما لكلامنا هذا حول هذه الصور التشبيهية من نماذج الصورة الثانية نقول: إن الطابع الفردي والعقلي هما اللذان ميَّزا طبيعة ألفاظها مع اختفاء الجوانب الأخرى. وما دمنا في الجانب التطبيقي فإننا لا نستطيع افتراض ما لم يكن موجودا في القرآن الكريم ومن هنا نتحول إلى تتبع هذه الأنواع مع الصورة الثالثة من صور التشبيهات القرآنية.

المبحث الثالث

نمطية الصورة الثالثة

تحتل هذه الصورة صدارة تشبيهات القرآن الكريم بكثرتها وانتشارها في مجموع آي الذكر الحكيم، إضافة إلى هذا فإنها تحتوي على أكبر قدر من التشبيهات المركبة لخلوها من الطرف الأخير (وجه الشبه) لأن عدم التصريح به يسهل مهمة التركيب كما سبق القول في الجانب النظري لهذه الصورة. كما تمتاز أيضا باحتوائها أكبر عدد من أدوات التشبيه، وبخاصة في التشبيهات المركبة. والأدوات التي استخدمت في مجموع نماذج هذه الصورة هي: (الكاف، كان، مثل، حسب) ويكثر تواجد (الكاف وكأن) في التشبيهات المفردة، بينما يكثر استخدام (مثل) في التشبيهات المركبة، سواء أفادت التشبيه أم لو تفده، وسنتطرق إلى هذه الأدوات بنوع من التفصيل في ثنايا كلامنا عن الأنواع الآتية:

النوع الأول: الإفراد:

من المألوف أن تتصف إحدى الصور التشبيهية بالفردية، سواء كانت مطلقة أو مقيدة أو متعددة، وهذا ما أورده بعض علماء البلاغة، فقالوا مثلا: تشبيه المفرد بالمفرد، وتشبيه المفرد بالمركب، أو تشبيه المركب بالمفرد، وغيرها من التفصيلات الأخرى[1]. ولكن الشيء الذي نركز عليه في هذه الدراسة هو الطرف الثاني من الصورة التشبيهية (المشبه به) الذي على غراره يقال: تشبيه مفرد أو مركب في الغالب الأعم عند علماء البلاغة، لأنه يمثل الجانب المتجدد دوما في مجموع نماذج الصور التشبيهية.

أ- **المطلق**: إذا بحثنا عن هذا النوع من الإفراد المطلق في الأمثلة القرآنية لوجدناها تتصف بطابعين؛ طابع اللفظة الواحد، وطابع اللفظتين للمعنى الواحد. ونجد كذلك الطابع الأول هو الغالب على هذا النوع من الإفراد المطلق، وأمثلته كثيرة ومتعددة نأخذ منها على سبيل التمثيل قوله تعالى في مخاطبة موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ...﴿١٠﴾﴾[النمل]. وقوله أيضا في وصف حالة السماء: ﴿يَوْمَ تَكُونُ

(1) الإيضاح في علوم البلاغة -الخطيب القزويني- شرح وتعليق وتنقيح عبد المنعم خفاجي- دار الفكر دمشق-1405هـ-1985م-ط2- ص364- + المثل السائر- المصدر السابق-ج1-ص388-422

ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج]. ومنه كذلك قوله تعالى في وصف الموج: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ ..﴿٣٢﴾﴾ [لقمان]. إن أول ما يتجلى أمامنا في هذه الأمثلة أن العلاقة التي تربط بين المشبهين غير مصرح بها، وعليه فهي واقعة فعلا داخل مقاييس الصورة الثالثة التي يحذف فيها وجه الشبه. كما يتضح أمامنا أيضا أن الفردية المطلقة غير المقيدة هي التي ميزت ألفاظ هذه الصور الثلاثة؛ فمثلا نجد لفظة (جان) اكتفت بمعناها العام المعروف عن الجن لتقابل عصا موسى – المتمثلة في الضمير المتصل بالأداة (كأنها) – في طريقة اهتزازاتها وكذا لفظة (المهل) التي انفردت بخاصيتها الطبيعية المعروف لتقابل لفظة (السماء) – في حالتها أثناء قيام الساعة – في ذوبانها وسيولتها، والأمر نفسه ينطبق على لفظة (الظلل) التي قابلت لفظة (الموج) في علوها وعظمتها.

وبهذه الكيفية تندرج معظم تشبيهات النمط الأول من النوعية المطلقة للصورة الثالثة. وإذا ما تناولنا الطابع الثاني لهذا النوع المفرد المطلق لوجدنا أن الأمثلة التي توصلنا إليها قليلة وأنها تختلف في شكليتها عن الطابع الأول، إذ نجد أن الإفراد المطلق فيها يتكون من لفظتين بدلاً من لفظة واحدة، وهنا يمكن للقارئ أن يتساءل: كيف يكون الإفراد المطلق بلفظتين مترادفتين في طرف واحد من طرفي الصورة التشبيهية؟ والجواب عن هذا التساؤل يكون من خلال تقصينا للأمثلة القرآنية التي تجمعت لدينا لهذا النوع من التشبيهات؛ فمثلاً لو أخذنا قوله تعالى: ﴿...وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد]. لوجدنا أن الطرف الثاني من هذه الصورة التشبيهية يتكون من لفظتي (تأكل، والأنعام)، ولو حاولنا فصل كل لفظة عن الأخرى لما استطعنا، لأن الآية تريد أن تبين طريقة أكل الكفار فشبهتها بطريقة أكل الأنعام، مع اختلاف طبيعة الجنسين. وعلى هذا الأساس يمكن القول: بأن الفردية المعنوية واحدة ومطلقة في كلا الطرفين (المشبه والمشبه به). والشيء نفسه ينطبق على قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم: ﴿...يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان]. ليس المراد كما يبدو من هذه الآية تشبيه شجرة الزقوم بالحميم، ولكن المقصود من هذه الآية هو تشبيه غليان هذه الشجرة داخل بطون أهل النار بغليان الحميم، وذلك في هيئة غليانه كما جاء في بعض التفاسير[1].

(1) التحرير والتنوير –المصدر السابق– ج 26– ص 315.

إذاً فإن كل لفظتين مترادفتين في طرف واحد من أطراف هذين المثالين متحدتان لا تنفصلان عن بعضهما البعض في أداء المعنى المراد من الصورة التشبيهية، ونشير هنا إلى أنه رغم هذا الاتحاد المركب فإننا لا نستطيع أن ننسب هذه النماذج التشبيهية إلى النوعية المركبة، ولا إلى الفردية المقيدة، وهذا ما جعلنا نطلق عليها مصطلح (الإفراد المطلق) بطابع ثاني مميز.

وقبل أن ننهي حديثنا عن هذه النوعية الفردية بطابعيها الأول والثاني، يجب أن نشير إلى الأدوات التي ربطت العلاقة التشبيهية حتى تكتمل الصورة التشبيهية. وعلى العموم فإن الأدوات التي استخدمت في الأمثلة التي بين أيدينا (الكاف، كأن، مثل):

1 - الكاف: يكثر استخدام هذه الأداة بشكل واضح في هذه الأنواع الفردية المطلقة، وتميزت بارتباطها ارتباطاً وثيقاً بالطرف الثاني من الصورة (المشبه به)، ويكون هذا على وجه الشيوع في أمثلة الطابع الأول من النوعية الفردية المطلقة، وأمثلته هي (كالمهل، كالعهن، كالجبال، كالفخار، كالرميم) وغيرها من الأمثلة الأخرى. وأما عن وضعيتها بين ألفاظ الطابع الثاني لنوعية الإفراد المطلق فإنها ترتبط باللفظة الأولى من الطرف الثاني، وهذه اللفظة حسبما تجمع لدينا من أمثلة فإنها عبارة عن صيغة للمفعول المطلق. والأمثلة التي سبق أن أوردناها تبين ذلك؛ ففي قوله تعالى: ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان] ترتبط الأداة (الكاف) بلفظة (الغلي)، وهذا الارتباط الوثيق بينهما أفاد في تأكيد قولنا عن أحادية الطرف الثاني، لأن صيغة المفعول المطلق تتطلب لإتمام المعنى لفظة أخرى مثل لفظة (الحميم) باعتبارها المادة التي تبين طبيعة الغليان.

ولم ترتبط أداة (الكاف) في الأمثلة التي بين أيدينا دوماً باللفظة الأولى من الطرف الثاني، بل تعلقت بأداة أخرى كما هو واضح في المثال السابق من قوله تعالى: ﴿...كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ..﴿١٢﴾﴾ [محمد]، فلفظة (تأكل) - وهي المضارع من فعل أكل- انفصلت عن الكاف تاركة المجال للاسم الموصول (ما) ليرتبط بها، وذلك لتدل على الحالة التي كان عليها المشبه به ويكون عليها المشبه.

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة في تبيان وضعية أداة التشبيه (الكاف) بين عناصر هذه النوعية الفردية المطلقة لننتقل إلى تتبع الأداة الثانية.

2- كأن: لم تحظ هذه الأداة بالمكانة التي حظيت بها أداة (الكاف)، فقد تمخضت الأمثلة التي حصرناها لهذه النوعية -التي نحن بصدد الكلام عنها- عن حالتين فقط ارتبطت فيهما الأداة بالطرف الأول (المشبه)، وقد تساوى في هذه الحالة الطابع الأول والثاني في هذه النوعية المفردة المطلقة. وتمثيلاً للطابع الأول نعيد المثال السابق من قوله تعالى: ﴿...تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ..﴿١٠﴾﴾ [النمل] فالأداة (كأن) كما هو واضح اتصلت بضمير الرفع المتصل (ها) العائد على العصا (عصا موسى عليه السلام) ويمثل الطرف الأول من الصورة التشبيهية. وللتمثيل للطابع الثاني ندرج قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم طعام أهل النار: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات] حيث نجد الأمر نفسه ينطبق على الأداة (كأن) في اتصالها مع ضمير الرفع (ها) الذي يمثل الطرف الأول من هذه الصورة التشبيهية المفردة المطلقة بلفظتين هما (الرءوس والشياطين). وبعد هاتين الأداتين (الكاف وكأن) لم تبق معنا سوى أداة واحدة هي:

3- مثل: وردت هذه الأداة في الأمثلة التي نحن بصدد الحديث عنها في حالة واحدة في قوله تعالى: ﴿...إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات] من الواضح أن الأداة وقعت في الطرف الثاني من هذه الصورة التشبيهية، وارتبطت بالأداة (ما) واتحدت معها لتقر صحة النطق عند المخاطبين، في إقرارها لصحة ما وعد الله بوقوعه وتحققه في المستقبل.

كل هذه الأمثلة التي أوردناها إلى الآن دارت حول النوعية المفردة المطلقة، وسننتقل إلى النوعية المفردة المقيدة لهذه الصورة الثالثة.

ب- المقيد: يبرز هذا النوع في الأمثلة التي بين أيدينا عن غيره من الأنواع الأخرى (المطلق والمتعدد)، ويمكن أن نبرر هذا البروز بكون القيود التي تلحق بالتشبيهات تقترب من التركيب، بل أحيانا يصعب فصلها عن التشبيهات المركبة، ويمكن أن نمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿... وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا...﴿٢٧﴾﴾ [يونس] فالجملة التشبيهية ﴿...كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا..﴾ تبدو مركبة من عدة ألفاظ هي (كأنما، أغشيت، وجوههم، قطعا، الليل، مظلما)،

ولكن إذا حللنا هذه الصورة إلى مشبه ومشبه به وأداة تشبيه ووجه شبه وجدنا أن الألفاظ الثلاثة الأولى وهي (كأنما، وأغشيت، ووجوههم) تمثل في مجملها الطرف الأول، أي (المشبه)، بينما تمثل الألفاظ المتبقية (قطعا، والليل، ومظلما) الطرف الثاني أي (المشبه به)، والذي يبدو مركبا من هذه الألفاظ الثلاثة، لكن حقيقة التشبيه واقعة بين وجوه الكفار والليل، وأضيفت لفظة (الظلال) للَّيل على شكل قيد يبين حالة الوجوه المراد تشبيهها بالليل، لأن الليل قد يكون مقمرا غير مظلم، ولهذا فقد قيِّد بالظلام الدامس لزيادة في توضيح صفة وجوه الكفار والمنافقين. والملاحظة نفسها تنطبق على الصورة التشبيهية من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر]، إذ ينحصر الطرف الأول في الضمير المتصل بأداة التشبيه (كأنهم) العائد على القوم المصروعين، بينما تمثل ألفاظ كل من (أعجاز، نخل، منقعر) الطرف الثاني من الصورة. وتكمن أهمية هذه الألفاظ في رسم الصورة التشبيهية بحسب ترتيبها في الآية؛ إذ تمثل لفظة (الأعجاز) الطرف الأساسي في الشجرة، والمراد هنا هو عجز النخلة لأن لفظة (النخل) التي جاءت بعدها أكدت ذلك، ثم جاءت بعد ذلك لفظة (المنقعر) وهي الصفة التي قيدت هذه الأعجاز في مقابلتها بجثث المذكورين في بداية الآية القرآنية.

وتأتي القيود في معظم التشبيهات المفردة في هذه الصورة الثالثة على شكل صفات تضاف إلى اللفظة الأساسية لتقيِّد خاصيتها، وتزيد في قوة معناها البلاغي الذي أوجبه بعض علماء البلاغة. وأما باقي التشبيهات المقيدة فإنها تتركب من لفظتين فقط؛ الأول هي: الطرف الثاني من الصورة (المشبه به)، واللفظة الثانية هي: الصفة أو القيد الذي يخصِّص حالة اللفظة السابقة، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة نقتصر على ذكر ثلاثة أمثلة فقط؛ المثال الأول: تقترن فيه الصورة التشبيهية بأداة التشبيه (كأن) في قوله تعالى: ﴿... يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر]. والمثال الثاني تقترن فيه الصورة بأداة التشبيه (الكاف) من قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة]. وأما المثال الثالث فتكون فيه الأداة فعلا من أفعال الشك وهي (حسب) وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [يونس]. فالقيود في هذه الأمثلة الثلاثة واضحة وهي (الانتشار، النفش، النثر)، فصفة الانتشار بيَّنت الوضعية التي

رمت إليها الصور التشبيهية من استخدامها للفظة (الجراد)، فقد أضافت لفظة (الانتشار) إلى هذا المعنى آخر يتمثل في التغطية الشاملة للأرض. إذاً فصفة (الانتشار) قيد جعل معنى الصورة التشبيهية يتغير من معنى العموم إلى معنى الخصوص. وهكذا الأمر مع لفظة (المنفوش) بالنسبة (للعهن)؛ فإلى جانب خاصية (اللين) التي يمتاز بها الصوف أضافت إليه هذه اللفظة خصوصية أخرى من خصوصياته وهي (الانتفاش)، وهي الصفة التي يؤول إليها الصوف بعد تفتت جزيئاته، وأما بالنسبة للصفة الثالثة فنجد أن لفظة (منثورا) التي أضيفت إلى اللؤلؤ، فإنها ميزته عن اللؤلؤ المنظوم المرتب. وجعلت منه شكلا آخر وهو المراد من تبيان وضعية الولدان وهم في خدمة أهل الجنة.

والملاحظ هنا أن هذه القيود الثلاثة ليست خصائص طبيعية تنتسب إلى الألفاظ التشبيهية التي سبقتها، بل هي عبارة عن خصائص عامة يمكن لأشياء أخرى أن تتصف بها. وهذا يوضح لنا بأن القيود التشبيهية لا يشترط أن تكون جزءا طبيعيا من أجزاء الصورة التشبيهية، لأنه لو صح ذلك لتطلب منا الأمر إلى أن نلحقها بالصورة المركبة، وهذا يعد فرقا بينا بين الصورة ذات النوع المركب والمفرد المقيد.

ج- المتعدد: لقد ذكر بعض علماء البلاغة أن التعدد يقع بين الأطراف العديدة في الصورة الواحدة، كأن يشبه زيد ببكر، وثوب زيد بثوب بكر. فهذان في نظر السبكي تشبيهان منفصلان متعددان[1]. كما يقع التعداد أيضا في وجه التشبيه، فقد أورد صاحب فن التشبيه قول البحتري مثالا لهذا التعداد[2] في وصف جواد:

أو كالغراب بدا يباري صحْبَه ... بسواد نقبته وحسن قوامه[3]

إذاً لقد شبه البحتري الجواد وهو مفرد بالغراب وهو مفرد كذلك، وجمع بينهما بوجهي شبه هما (السواد والقوام)، وهذا ما يسمى بالتعدد في وجه الشبه، وينطبق هذا التعدد على الصورة الأولى التامة الأركان.

---

(1) ينظر البهاء السبكي وآراؤه البلاغة والنقدية- عبد الفتاح لاشين- دار الطباعة المحمدية الأزهر- 1389-1978-ط1-ص326- نقلا عن عروس الأفراح-ج3- ص 423-424.

(2) ينظر فن التشبيه (بلاغة-أدب-نقد) علي الجندي-مكتبة الإنجلو المصرية-1386-1966-ط6-ف 12-ص 145.

(3) الديوان-البحتري-تحقيق حسن كامل الصيرفي- دار المعارف بمصر-ط2-م3-1992

إذا نظرنا إلى هذين المثالين حول الفردية المتعددة وقابلناه مع ما تجمع لدينا من تشبيهات القرآن الكريم في هذه الصورة الثالثة لوجدنا اختلافا بيّنا في طريقة تعدد عناصر الصورة الواحدة؛ فالمثال الذي جاء به السبكي وقع التعدد فيه بين الأطراف المتقابلة، فزيد يشبه بكر، وثوب زيد يشبه ثوب بكر، وهكذا... إلخ. بينما التعدد في مثال علي الجندي وقع في ذكر صفتي (السواد والقوام) وهما وجها شبه لمشبهين اثنين، غير أن التعدد في الأمثلة القرآنية يقع بين طرف واحد وعدة أطراف أخرى، أي بين مشبه واحد ومشبهات عدة، والأمثلة التي سنوردها تشرح لنا هذا التعدد على قلتها؛ فالمثال الأول لهذا التعدد نجده متمثلا في قوله تعالى: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ...(٢٤)﴾ [هود]، فقد شبهت الآية طرفين بعدة أطراف، فالطرف الأول هو الفريق الضال، شُبِّه بطرفين اثنين هما (الأعمى والأصم) بينما شُبِّه الطرف الثاني وهو الفريق المهتدي بطرفين اثنين هما (البصير والسميع).

ولتوضيح صفة هذا التعدد في هذه الصورة الثالثة أكثر ندرج قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨)﴾ [الرحمن] فقد أشار ضمير الرفع (هن) المتصل بأداة التشبيه (كأن) إلى مشبه واحد وهو أهل الجنة (قاصرات الطرف) ورُبط هذا المشبه بمشبهين بهما (الياقوت والمرجان)، حسب العلاقة التي تربطه بكل طرف على حدة.

مما هو واضح في هذه الأمثلة التي سقناها للتعددية الفردية أن أوجه الشبه لم يصرح بها، وعلى هذا فإنها تنتمي قاعديا إلى النوعية الفردية من الصورة الثالثة. وبهذه الطريقة يمكن أن نلتمس هذه التعددية في جل الأمثلة المتبقية.

لقد أشرنا في بداية حديثنا هذا إلى أن الفردية المقيدة تقترب من التشبيهات المركبة، وأن التركيب يتميز عن القَيْد، وأن هذه الصورة الثالثة في القرآن الكريم تحتوي على تشبيهات مختلفة، وهذه التشبيهات ستكون موضوع كلامنا ضمن محوري النوع الثاني.

النوع الثاني: التركيب:

1- التركيب المزجي: ويراد به امتزاج عناصر الطرف الواحد في تأليف وتركيب الطرف المشبه، والطرف المشبه به، وقبل الشروع في تتبع هذه النوعية ضمن تشبيهات القرآن الكريم -نشير إلى صعوبة التفريق بين الجانب المزجي والجانب التقابلي، وذلك لدقة التشابه بينهما، خصوصا إذا تعلق الأمر بتشبيهات القرآن الكريم. وهذا ما وقع فعلا عند بعض المفسرين. فمثلا لو أخذنا رأي صاحب التحرير في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَٰلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) ﴾ [البقرة]، فإننا نجده يجمع التركيبين المزجي والتقابلي في قوله: {{ومن بائع القرآن هذا التمثيل مع ما فيه من تركيب الهيئة المشبه بها، ومقابلتها للهيئة المركبة من حالهم، هو قابل لتحليله إلى تشبيهات مفردة، فكل جزء من هيأة أحوالهم بجزء من الهيأة المشبه بها، فشبه استماعهم القرآن باستيقاد النار، ويتضمن تشبيه القرآن في إرشاد الناس إلى الخير والحق، والنار في إضاءة المسالك للسالكين، وشبه رجوعهم إلى كفرهم بذهاب النور، وشبَّه كفرهم بالظلمات، ويُشبَّهون بقوم انقطع إبصارهم}}[1]. إذا فالإشكالية واقعة عند الرأي الواحد في الصورة الواحدة، ولعل هذا سيبرر بعض الاجتهادات التي نميل إليها في ترجيح جانب على آخر، والتي أدخلها ضمن التمثيل المركب في قوله: {{والتمثيل المركب الآتي على شكل وحدة مركبة متداخلة؛ دون اشتراط التقابل بين مفرداتها ومفردات ما ضرب له المثل، ويمكن أن نمثل له بما جاء في القرآن الكريم من تمثيل المنافق المحتار المتردد بين الخوف والطمع، وبين الإيمان والكفر، وبين شهوات النفس المسيطرة على ساحتها وومضات الضمير، بالذي استوقد نارا في ليل مظلم ليرى طريقه، فلما أضاءت النار ما حوله وانكشفت عنه الظلمات انطمس بصره بسبب منه، فانحجب عن إدراك النور الذي حوله فعاد إلى ظلمة قاتمة كان هو السبب فيها}}[2].

---

(1) التحرير والتنوير -المصدر السابق- ج1- ص320-321

(2) الأمثال القرآن- عبد الرحمان حسن حنبكة الميداني -دار القلم دمشق-1400-1980-ط1- ص8-9.

وترجيحنا لهذا الرأي لا لكونه مصيبا فحسب، بل لأنه حافظ على الوحدة الموجودة بين أجزاء الصورة التي حاول صاحب التحرير في رأيه الثاني أن يفصلها عن بعضها البعض. وهذا ما جعلنا نشير إلى أن قضية الاختلاف هذه بين الآراء تعود إلى عدم وضوح القاعدة -في التركيبين المزجي والتقابلي- عند البلاغيين والمفسرين؛ فمثلا لو عدنا إلى الرأي الأخير (الميداني) للاحظنا فيه غموضا بيّنا، ففي قوله:(دون اشتراط التقابل بين مفرداتها) يعني حسب فهمنا أن التقابل موجود، ولكن لا نلزم بإجرائه، وإذا ما أجريناه فإنه لا ينقص شيئا من بلاغة الصورة التشبيهية. وهذا يختلف مع قوله: (والتمثيل المركب الآتي على شكل وحدة مركبة متداخلة)؛ لأن التداخل هنا يعني امتزاج العناصر ببعضها إلى درجة لا تسمح بتقابل أي جزء مع الآخر.

ومما تقدم نستنتج حقيقتين؛ الأولى: أن الاشتراط في وجود التقابل بين مفردات الصورة المركبة الواحدة، يوجب وجود أوجه التلاقي بين هذه الأجزاء المفردة. وإذا ما تحقق هذا فإن الصورة تكون مركبة تركيبا تقابليا، يمكننا الإشارة إليه إذا أردنا التفصيل. ولعل هذا ما أراده صاحب التحرير في قوله السابق: (وهو قابل لتحليله إلى تشبيهات مفردة...)، وهذا الضرب من التشبيهات المركبة نادر في تشبيهات الصورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم. ونمثل له من الشعر ببيت بشار المشهور:

وكأن مثار النقع فوق رءوسهم ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه[1]

وأما الحقيقة الثانية فتتمثل: في أن انعدام وجود أوجه التشابه بين العناصر المتقابلة في الطرفين المشبهين -إن وجدت هذه العناصر - يخول لنا اعتبار التركيب فيها تركيبا مزجيا، فنضع بذلك حدا فاصلا بين التركيبين، ويمكن أن نمثل لهذا النوع من التركيب بقول البحتري:

دنوت تواضعا وبعدت قدرا ... فشأناك انحدار وارتفاع

وكذلك الشمس تبعد أن تسامى ... ويدنو الضوء منها والشعاع[2]

---

(1) الديوان-بشار بن برد- تحقيق الطاهر بن عاشور- نشر الشركة التونسية للتوزيع- والشركة الجزائرية للنشر والتوزيع- ج1- قافية الباء-ص335.

(2) الديوان - البحتري- المصدر السابق - ط2-مجلد 2-ص1247.

وهذا الضرب من التشبيهات المركبة تركيبا مزجيا كثير ومتنوع في تشبيهات الصورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم، ولا يسمح المجال لذكرها جميعا، ولهذا نكتفي بذكر بعض الأمثلة للتدليل على ذلك؛ فمثلا نأخذ قوله تعالى ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ...(٣٥)﴾[النور]. فإذ تتبعنا تحليل هذه الصورة وجدناها قد شكلت من طرفين الأول: مفرد، وتمثله لفظة (نوره)، أي نور الله تعالى. والثاني: مركب من عدة أجزاء ليس لها نظير في الطرف المقابل (المشبه). وهذا القول لا يوافق ما جاء في التفسير حول هذه الصورة التشبيهية {{وهذا بالغ كمال الإفصاح بحيث هو مع أنه تشبيه هيئة بهيئة، هو أيضا مفرق التشبيهات لأجزاء المركب المشبه مع أجزاء المركب المشبه به..}}[1].إذاً فالمقابلة في هذه الصورة معدومة لعدم وجود العناصر المصرح بها التي يحق لنا مقابلتها بالعناصر الأخرى؛ وحتى إن وجدت –كما سنمثل لذلك فيما بعد– يشترط أن تكون أوجه الشبه الجامعة بين العناصر المتقابلة موجودة.

وزيادة للإيضاح أكثر نتناول قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ...(١٨)﴾[إبراهيم]. يحتوي الطرف الأول على عنصر واحد وهو لفظة (أعمالهم)، ويحتوي الطرف الثاني على عدة أجزاء هي (الرماد، الرياح، اليوم، العاصف) مع إضافة صفة عدم المقدرة، وبالتالي فلا وجود للتقابل بين عنصر واحد وعدة عناصر على ما هو ظاهر في معنى الألفاظ المستعملة في رسم الصورة التشبيهية. إذا فالحالة الفردية تمثلت في طرف دون آخر، وعليه يتعذر علينا إجراء أي مقابلة بين العناصر عن طريق التأويل؛ كما فعل صاحب التحرير في المثال السابق من قوله تعالى: ﴿...كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا...(١٧)﴾[البقرة]، كما أنه ليس من الضروري إذا توفرت عدة عناصر في الطرف الأول والثاني أن نقيم المقابلة بينها، ونفككها إلى تشبيهات مفردة؛ فلوا أخذنا المثال الموالي من قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ

(1) التحرير والتنوير –المصدر السابق– ج18 –ص242.

أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ...﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف] لوجدناه يتكون من طرفين مركبين (مشبه ومشبه به) وكل طرف فيه عناصر عديدة، ولكن هل بتعدُّدها نستطيع مقابلتها ببعضها البعض؟ طبعا لا نستطيع ذلك لأن العناصر في الطرف الأول المكونة من (الذي أوتي آيات الله، ولكنه انسلخ منها، ثم وقع في غواية الشياطين، بركونه إلى الأرض، واتباع هواه) لا توجد بينها وبين عناصر الطرف الثاني المتمثلة في (الكلب، وحركة الحمل عليه مع صفة اللهث، وعدم الحمل عليه مع صفة اللهث المستمر) أوجه الالتقاء الظاهرة بين مفرداتها فعنصر (الإنسان الذي آتاه الله الآيات) ليس بينها وبين عنصر (الكلب) اللهث وجه تشبيهي منفرد عن بقية عناصر الصورة التشبيهية بعامة، وهكذا الأمر مع بقية ألفاظ وعناصر الطرفين المشبهين.
ويمكن أن نطبق هذه الكيفية على عناصر الصورة التشبيهية القرآنية الموالية من قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ...﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة].
فإذا بحثنا عن أوجه المقابلة بين ألفاظ عناصر الطرفين فإننا لا نعثر عليها؛ لأننا إذا أردنا أن نقابل بين الذين ينفقون أموالهم وبين الجنة التي هي بربوة،لما وجدنا عناصر التلاقي بين الطرفين. كما أنه إذا قابلنا بين الجانب المعنوي من الطرف الأول وهو (ابتغاء مرضات الله) وبين (الوابل) لا نجد علاقة بيِّنه تجمع بين هذين الطرفين المفردين. وهكذا الأمر مع باقي الأطراف الأخرى من هذه الصورة. وهذه العملية تنطبق على جل تشبيهات الصورة الثالثة المركبة تركيبا مزجيا من تشبيهات القرآن الكريم.

وبعد إذ تبين المراد من هذه النوعية المركبة المزجية نحاول معالجتها ضمن عدة نقاط أو ملاحظات نتعرف من خلالها على الناحية الفنية الجمالية للتشبيه.

الوحدة العضوية: تمتاز تشبيهات هذه النوعية المركبة باتحاد عناصرها ببعضها، إلى درجة لو قدمنا أو أخرنا عنصرا من عناصر الأساسية في الصورة لاختل المعنى الذي يراد من وراء إقامة العلاقة التشبيهية بين الطرفين المشبهين؛ ويمكن أن نأخذ مثالا لهذه الوحدة العضوية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ

مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ..﴿٢٤﴾﴾ [يونس] في هذه الصورة نجد الطرف الثاني منها يتكون من مجموعة عناصر أساسية وردت مرتبة ترتيبا مرحليا. فلو حاولنا مثلا تأخير مرحلة نزول المطر من السماء إلى مرحلة ما بعد اختلاطه بنبات الأرض لما صح لنا ذلك؛ لأن المطر هو العنصر الحي الذي ينزل من السماء فيختلط بالنبات، فيبعث فيه الحياة، وهكذا تتم أطوار النبات بعد نزول المطر إلى غاية الدمار الذي يصيبه، سواء بالهلاك كما هو في الآية أم باليبس والحطام. وإذا حاولنا أن نحذف أي عنصر من هذه العناصر الأساسية – رغم كثرتها- فإن المعنى لا يستقيم معنا؛ لأن الهيئة العامة للصورة المركبة يعتريها البتر والنقصان، وهذا ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في تعليقه حول هذه الصورة التشبيهية: {{... وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجُمل معناها حاصلة تشير إليها واحدة واحدة، ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر عن شطر؛ حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضوع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه}}[1]. والوحدة العضوية التي يريدها الجرجاني من خلال كلامه هذا هي التناسق بين الجمل؛ الثانية مع الأولى، والثالثة مع الثانية، وهكذا الأمر مع باقي الجمل المتبقية في الطرف المركب الواحد.

والوحدة العضوية هذه تجرنا إلى ذكر وحدة الموضوع، لأن الصور إذا كانت متناسقة متكاملة في تأدية المعنى فإنها لا تخرج عن معالجة موضوع واحد.

وحدة الموضوع: ونستشف معناها من قول عبد القاهر في ذكر محاسن التمثيل: {{... وأنه ليأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدة، ويشتق من الأصل الواحد أغصانا في كل غصن ثمر على حدة...}}[2]. تمثل عبارة (الأصل الواحد) وحدة الموضوع في الطرف المركب، بينما تمثل لفظة (أغصانا) الأجزاء التابعة للموضوع وأما (الثمار) فهي ما تفرع عن هذه الأجزاء من

(1) أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني – تحقيق عبد المنعم خفاجي – مكتبة القاهرة -1399- 1979- ج1- ص 218-219.

(2) المصدر نفسه -ج1 -ص252

معاني جزئية لها دورها في رسم الصورة التشبيهية. ويمكننا أن نتتبع هذه الوحدة الموضوعية في قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. (٢٠) ﴾ [الحديد] يحتوي الطرف الثاني المُمَثَّل به في هذه الصورة التشبيهية على عدة عناصر فيها الأساسي وفيها الفرعي، والعنصر الأساسي هنا هو (النبات) وكل ما جاء قبله من (غيث) أو بعده من (إعجاب الكفار) أو (هيجان) أو (اصفرار) أو (تحطم) يتعلق بهذا النبات. وهذا ما أكده صاحب التحرير والتنوير في قوله: {{و المقصود بالتمثيل هو النبات، وإنما ابتدئ بغيث تصويرا للهيئة من مبادئها لإظهار مواقع الحسن فيها لأن ذلك يكتسب منه المشبه حسنا}}[1] ويمكن أن يجري هذا التحليل لزيادة في التوضيح أكثر على الصورة التشبيهية من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ... (٢٥) ﴾ [إبراهيم] تمثل (الشجرة الطيبة) المحور العام الذي تتفرع منه جميع الأجزاء، أو بالأحرى فهي الموضوع الأساسي الذي تهدف باقي الفروع إلى تبيان حالته العامة المراد تشخيصها؛ لتقابل الطرف الأول من هذه الصورة التشبيهية فالشجرة الطيبة إذاً كل متكامل بأصلها الثابت وفرعها الذي في السماء وأكلها الدائم في كل حين.

وعلى هذا النمط تأتي الوحدة العضوية في التشبيهات النوعية المركبة بطريقة التركيب المزجي. وإلى جانب هاتين النقطتين، الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية، هناك نقطة أخرى يجب أن نتطرق إليها وتتمثل في الأدوات المستعملة في هذه التركيبة المزجية للصورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم.

أدوات التشبيه: تنحصر الأدوات المستعملة في هذه الصورة المركبة تركيبا مزجيا –في ثلاث أدوات هي– الكاف، مثل، وكأن:

١- **الكاف**: فإذا تتبعنا هذه الأدوات وجدناها تبرز في التشبيهات المركبة المزجية في شكلين أساسيين: الأول تكون فيه مستقلة عن لفظة (مثل) في الصورة التشبيهية الواحدة، وفي هذه الحالة نجدها إما متعلقة ب(ما) المصدرية، التي تدل على تكرار الفعل الواحد

---

(1) التحرير والتنوير –المصدر السابق– ج 27 – ص404

مرتين في الطرفين المشبهين، الأول والثاني؛ ويتمثل في قوله تعالى واصفا أكله الربا: ﴿...لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ..(٢٧٥)﴾ [البقرة]. وإما متعلقة به مباشرة، سواء كان فاعلا كما هو الشأن في قوله تعالى: ﴿...كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ..(٢٦٤)﴾ [البقرة] أو اسم فاعل كما يظهر في قوله تعالى ممثلا حال المشركين في دعائم الأصنام وعدم استجابة هذه الأخيرة لهم بشيء: ﴿...كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ..(١٤)﴾ [الرعد] أو متعلقة بالمصدر مباشرة كما توضح ذلك أوائل الصورة التشبيهية: ﴿...كَسَرَابٍ...(٣٩)﴾ [النور] و﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ...(٤٠)﴾ [النور] ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ..(١٩)﴾ [البقرة].

وأما الشكل الثاني الذى تبرز من خلاله هذه الأداة (الكاف) في الصورة التشبيهية الواحدة فإنه يكون دوما متعلقا بلفظة (مثل) التي ستتكلم عنها فيما يلي:

2-مثل: تكون العلاقة بين الأداتين (مثل) و(الكاف) على نمطين: منفصل ومتصل، ويكون المنفصل في تقابل الأداتين في الصورة الواحدة تفصل ألفاظ أخرى، غير أن العلاقة بينهما تبقى متصلة، وتتعدد الألفاظ التي بين الأداتين من لفظة إلى لفظتين؛ وتمثيلا للشكل الأول ندرج قوله تعالى في الصورة التشبيهية السابقة: ﴿...مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ..(٣٥)﴾ [النور] وتمثيلا للشكل الثاني نأخذ هاتين الصورتين: ﴿...ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ..(٢٤)﴾ [إبراهيم] و﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ..(٢٦)﴾ [إبراهيم]. فالفصل بين الأداتين واضح وجلي في هذه الأمثلة. فموقع لفظة (النور) كان بمثابة، حالة بين الأداتين: (مثل) و(الكاف) المتصلة بلفظة (المشكاة). كما فرقت بينهما ألفاظ كل من (الكلمة الطيبة) و(الكلمة الخبيثة) في المثالين الأخيرين.

وإذا ما انتقلنا إلى الحالات التي يتم فيها الوصل بين الأداتين، فإننا نجد إلى جانبها حالات الفصل التي سبق التمثيل لها، وستتعرف إلى هاتين الوضعيتين بنوع من التفصيل.

يتم اتصال (مثل) بالأداة (الكاف) في جل الأمثلة التي بقيت بين أيدينا لهذه النوعية التركيبية المزجية، غير أن هذا الاتصال يصاحبه انفصال بين الأداتين في الصورة التشبيهية نفسها، إذا استثنينا ما ورد في الصورة التشبيهية من قوله تعالى في وصف الحياة الدنيا

﴿...كَمَثَلِ غَيْثٍ..﴿٢٠﴾﴾ [الحديد]؛ حيث ينفرد اتصال الأداتين (مثل، الكاف) دون أن تعدد لفظة (مثل) كما سنرى في الأمثلة الآتية:

تنفرد الأداة (مثل) –في الأمثلة التي سنوردها– في بداية الصورة التشبيهية لتتصل بالكاف في بداية الطرف الثاني من نفس الصورة، ويفصل بين الانفصال والاتصال ألفاظ أخرى، إذا استثنينا حالة واحدة كانت فيها لفظة (مثل) قريبة لفظة (كمثل) دون فاصل لفظي بينهما؛ وتتمثل هذه الصورة في قوله تعالى واصفا المرائي في الإنفاق: ﴿...فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ..﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة].

وإذا تتبعنا قضية الفصل التي تحدث في الصورة الواحدة بين الأداة (مثل) منفصلة، وبين الأداة (مثل) متصلة بالكاف في (كمثل) فإننا نجد هذا الانفصال يحدث بواسطة ألفاظ تتعدد في التصاعد من لفظتين إلى أربعة أو خمسة أو ثمانية ألفاظ. وللتمثيل لصيغة التعدد بلفظتين نأخذ هذه الآية من قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ ..﴿١٧١﴾﴾ [البقرة] بينما نمثل للتعدد بأربعة ألفاظ بقوله تعالى في وصف نفقة الكفار والمنافقين ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ..﴿١١٧﴾﴾[آل عمران]. وأما التعدد بخمسة ألفاظ فندرج له هذا المثال من قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ..﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة]. وأما التعدد الثامن والأخير فنورد له هذا المثال من قوله تعالى في وصف نفقة المؤمنين: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا ..﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة].

تمثل هذه الأمثلة التي سقناها الوضعيات المختلفة التي وردت على منوالها أداتا التشبيه (الكاف، مثل) منفصلة ومتصلة في آن واحد. ولم يبق معنا الآن إلا الأداة الثالثة والأخيرة.

3- كأن: لم ترد هذه الأداة في التشبيهات المركبة –المزجية– التي توصلنا إلى فرزها إلا في شكلين اثنين الأول: ترتبط فيه الأداة بضمير الرفع المتصل (هم) الذي يمثل الطرف الأول من الصورة، ويتبين هذا في آيتين في وصف حالة الخلق يوم البعث ﴿... كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعراج] و﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر]. وأما

الشكل الثاني فترد فيه الأداة متصلة ب (ما) المصدرية - الدالة على الحالة التي يكون عليها الطرف الأول مشبهًا بالطرف الثاني، أي أنها تتعلق هي الأخرى بالمشبه، وتبرز هذه الحالة في قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال].

والاهتمام بهذه الأدوات التشبيهية التي ضمتها الصور التشبيهية المركبة تركيبا مزجيا يعود إلى كثرتها وتنوعها وأهميتها في تحريك أطراف هذه الصور، فكلما تعددت الأدوات في الصورة الواحدة كلما ازداد الجانب الحركي في عناصر الصورة أكثر، وسنتطرق إلى هذه الحركة عندما نتناول الجانب الدلالي في آخر عنصر من عناصر هذه الصورة الثالثة.

وإذا كان الحديث عن التركيب المزجي قد أخذ نصيبا وافرا، وذلك لكثرة نماذجه وتنوعها، فإن الحديث عن التركيب التقابلي لا يحظى بنفس القدر من الأهمية وذلك لقلة نماذجه وندرتها.

2- **التركيب التقابلي**: وقبل الشروع في تناول هذا النوع من التركيب -الذي نستطيع مقابلة أجزائه ببعضها البعض في الطرفين المشبهين- نناقش حقيقته مرة أخرى مناقشة نصية من خلال صورة تشبيهية واحدة، والمتمثلة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا ... ۝٧١﴾[الأنعام]. يقول في هذه الصورة أحد المفسرين: {{وهذا التركيب البديع صالح للتفكيك بأن يشبه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبه بها؛ بأن يشبه الارتداد بعد الإيمان بذهاب عقل المجنون وشبه الكفر بالهُيام في الأرض، ويشبه المشركون الذين دعوهم إلى الارتداد بالشياطين، وتشبه دعوة الله الناس للإيمان، ونزول الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعون إلى الهدى}}[1]. ولكن عندما نريد أن نطبق طريقة المقابلة بين أجزاء هذه الصورة التشبيهية فإننا لا نجد علاقة التقابل صريحة في التعبير النصي للآية؛ ودليلنا في ذلك أن الطرف الأول يتناول قضية ظاهرها يراد به الجانب الخفي منها، وهذا ما يقول به أحد المفسرين في قوله: {{... والكلام من المركب

---

(1) التحرير والتنوير -المصدر السابق- ج7- ص302-303.

العقلي ومن التمثيل حيث يشبه فيه من خلص من الشرك ثم نكص على عقبيه بحال من ذهبت به الشياطين في المهمة وأضلته بعدما كان على الجادة من الصواب}[1]. إذًا فالظاهر في الشطر الأول من الصورة والمتمثل في (القول بعدم الدعوة إلى غير الله ورفض الارتداد إلى العقب بعد الهداية) أنه يراد به: {(من خلص من الشرك ثم نكص على عقبيه}[2]. إذ شبهت حالته بحالة من أضلته الشياطين فحاد عن جادة الصواب، وعلى هذا الأساس فإن هذه الصورة لا تدخل ضمن التشبيهات المركبة تركيبا تقابليا، وعليه نقيس باقي التشبيهات المركبة.

لقد أشرنا في بداية هذا الحديث إلى أن هذه النوعية قليلة ونادرة في الأمثلة القرآنية التي بين أيدينا، وذلك حسب الشرط الأساسي الذي أكدنا على وجوده فيما سبق، وهو أن تتواجد العناصر المتقابلة في الطرفين مع وجود أوجه الشبه التي تربط بين هذه العناصر الجزئية في الصورة الواحدة؛ مبتعدين في ذلك عن عملية التأويل التي استخدمها بعض المفسرين[3].

وانطلاقا من هذا المبدأ فإننا لم نعثر على هذه النوعية بالمعنى الواضح الذي أشرنا إليه في بيت بشار السابق (كأن مثار النقع...). ورغم هذا فقد التمسنا مثالين تتوفر فيهما بعض عناصر التلاقي في بعض أوجهها، فمثلا لو أخذنا قوله تعالى في الحث على الوفاء بالعهد وبعدم نقضه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ.. ﴿٩٢﴾﴾[النحل]. فإننا نعثر على تلاقي بعض العناصر مثل (نقض الأيمان) و(نقض الغزل)، كما نجد أيضا التلاقي بين عنصري (التوكيد، القوة)، زيادة على هذا فإن وجه التلاقي بين عناصر الطرف الواحد مجتمعة في التركيبة الواحدة وبين عناصر الطرف الثاني مجتمعة كذلك، وهو كما أشرنا الأساس في إقامة الصورة التشبيهية، وليس التقابل بين العناصر هو الغرض المرام من إقامتها. ومما يزيد في

---

(1) روح المعاني -المصدر السابق - م3-ج7 - ص189.
(2) ينظر التحرير والتنوير -المصدر السابق- ج7 -ص303.
(3) ينظر التحرير والتنوير -المصدر السابق- ج7 -ص303.

تغلب وجود عناصر التقابل في هذه الصورة ما جاء به صاحب الجامع لأحكام القرآن في تفسيرها: {{النَّقض والنَّكث واحد، والاسم: النَّكث والنِّقض، والجمع الأنكاث، فشبهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة التي تغزل غزلها وتفتله حكما ثم تحله}}[1] نلمس في هذا التحليل ترتيب العناصر الموجودة في الصورة التشبيهية حسب العلاقة التي تجمع بين الجزأين المتقابلين.

يعد هذا المثال السابق أقرب الصور التركيبية الصالحة لإجراء المقابلة بين أجزائها. وأما المثال الثاني الذي سنورده يبتعد نوعا ما عن المثال السابق في إمكانية التقابل بين أجزائه، وذلك لكثرتها وابتعادها في السياق النصي عن بعضها البعض، إذ نجد بين العناصر الموجودة في الطرف الأول -التي تصلح أن تتقابل مع العناصر الموجودة في الطرف الثاني بواسطة الأداة- عدة آيات. وما دام الأمر يحتاج إلى دليل نصي فإنه يتحتم علينا سرد الآيات القرآنية- رغم طولها- بحيثياتها لنلتمس أوجه التقابل بين عناصر الصورة التشبيهية الواحدة. وموضوع هذه الآيات يتكلم عن النفاق والمنافقين وإغوائهم للكفار والمشركين يقول تعالى في هذا السياق: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر]. في هذه الصورة التشبيهية المترامية الأطراف اقتصر صاحب التحرير في ربط العلاقة بين طرفيها على لفظة العذاب فيقول: {{أي مثلهم في تسبيبهم لأنفسهم عذاب الأخرة كمثل الشيطان إذ قال للإنسان بأن يكفر ثم يتركه

(1) الجامع لأحكام القرآن -التفسير السابق- م5 -ج20 -ص171.

ويتبرأ منه فلا ينتفع أحدهما بصاحبه ويقعان معا في النار}}[1]. يبدو من خلال كلامه هذا أنه اعتمد على الأجزاء الأخيرة من الصورة، ولكن إذا بحثنا مليا عن عناصر التقابل بين الطرفين المشبهين لاختلفنا معه، إذ نلتمس عناصر الطرف الأول في بداية الآيات عن النفاق والمنافقين ففي جملة ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ... ﴾ تمثل عبارة (ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ... ﴾ الجزء المقابل لعبارة (كمثل الشيطان) والجامع بينهما هو الغواية، بينما تقابل جملة ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ... ﴾ في الطرف الأول عبارة ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ ... ﴾ في الطرف الثاني من الصورة، والجامع بينهما هو الأمر بالتمرد، وأما باقي الأجزاء الأخرى في الطرف الأول فتتقابل مجتمعة مع باقي الأجزاء الأخرى من الطرف الثاني مجتمعة كذلك، مع تواجد الجمل المعترضة ابتداء من ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم ... ﴾ إلى غاية ﴿ ... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾. وأما موقع جملة ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ فيمثل الجزء النهائي من أجزاء الطرف الأول من الصورة التشبيهية، فهو عبارة عن حالة نهائية للمنافقين الغاوين والكافرين والمغويين على حد سواء؛ وسندنا فيما ذهبنا إليه ما أورده صاحب روح المعاني أثناء تفسيره لهذه الصورة التشبيهية: {{... كأنه قيل مثل أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب في حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال إغراء الآمر للمأمور به...}}[2]. وبالرغم من إمكانية إجراء التقابل بين أجزاء هذه الصورة -كما سلف لقول- فإن الجانب التركيبي يبقى هو الغرض الأساسي من إقامتها. وإذا كان النوعان الفردي والتركيبي واضحي المعاني في هذه الصورة الثالثة، فإننا لا نجد هذا الوضوح في النماذج المقلوبة أو المعكوسة، كما سنرى ذلك من خلال معالجتنا للنوع الثالث من أنواع هذه الصورة.

النوع الثالث: القلب أو العكس:

لا يراد بعكس الصورة أن يقدم المشبه به على المشبه كما سبق أن بيّنا ذلك في الصورة التشبيهية السابقة في قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا

(1) التحرير والتنوير – المصدر السابق- ج1- ص 108-109

(2) روح المعاني –المصدر السابق- م11 –ج1 –ص59

ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ...﴿١٧﴾ [الرعد]، وإنها يقصد به أن يتحول المشبه مشبها به، أو العكس، كأن يصير المشبه به عادة أقل درجة من المشبه، ومن أمثلة ذلك من الشعر قول ابن المعتز المشهور:

قد أغتدي على الجياد الضمر   والصبح في طرة ليل مسفر
كأنه غرة مهر أشقر   والوحش في أوطانها لم تُغذَرِ[1]

ففي هذا البيت توجد صورة تشبيهية، قابل فيها ابن المعتز بين بياض الصبح العالق بسواد آخر الليل، وبين البياض الموجود في جبهة المهر الأشقر، وقد جعل من الأول مشبها ومن الثاني مشبها به. ولكن المتعارف عليه في الطبيعة أن بياض الصبح في آخر الليل أبرز وأوضح للعيان من بياض غرة المهر؛ ولهذا كان من المعتاد أن يشبه الطرف الثاني بالطرف الأول، أي يشبه الأدنى بالأعلى، وبالرغم من هذا فالعكس في هذه الصورة التشبيهية طبيعي على حد قوله فخر الدين الرازي، لأنه يدخل في إطار: {{الجمع بين الشمس في مطلق الصورة أو الشكل أو اللون، فالعكس مستقيم فيه، وهو تشبيه الصبح بغرة الفرس الأدهم لا لأجل المبالغة في الضياء بل لأجل وقوع منير في مظلم وحصول بياض في سواد مع كون البياض قليلا بالإضافة إلى السواد}}[2].

وأما إذا كانت الصورة في نظره على غير هذا الحال فلا يصح عكسها كأن: {{يكون الغرض من التشبيه إلحاق الناقص من الزائد مبالغة في إثبات الحكم للناقص فهذا يمتنع عكسه وهو كما إذا شبهت شيئا أسود بما هو الأصل في شدة السواد، كخافية الغراب والقار، امتنع فيها العكس لأن تنزيل الزائد منزلة الناقص يضاد المبالغة في الإثبات}}[3].
نفهم من قول الرازي أن عملية عكس الصورة التشبيهية تخضع للغرض المراد من إقامتها، وفي حالة ما إذا وجدنا صورة معكوسة دون أن يكون لقاؤها غرض يهدف إليه من عملية عكس الطرفين المشبهين، سوى أنه يريد المبالغة في التصوير، فإننا لا ندرجها ضمن الصور

---

(1) الديوان -ابن المعتز- دار بيروت للطباعة والنشر- 1400- 1980- ص243.
(2) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز -فخر الدين الرازي - تحقيق وتقديم بركات أبو علي - دار الفكر للنشر والتوزيع -عمان -الأردن-1989 - ص110.
(3) الإيجاز في دراية الإعجاز -المصدر السابق- ص110.

التشبيهية المعكوسة، ولكن الأول بالرفض لنوعية هذه الصورة إذا كان الغرض من عملية عكس طرفيها الجانب التقريري، لا الجانب التصويري، وهذا ما سنتعرف عليه من خلال مناقشتنا لبعض النماذج فيما بعد.

وإذا انطلقنا من حتمية صحة عكس الصورة التشبيهية بصحة الغرض، فإننا لا نجد ضمن تشبيهات الصورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم أي صورة معكوسة، وبعد هذا تكون النماذج التي أوردتها بعض المفسرين وعلماء البلاغة بعيدة عن القاعدة التي وضعها الرازي والتي تعتمد على عدم المبالغة في عكس الصورة، وتحديد الغرض من عكسها، وهذا لا يمنع من مناقشة النماذج التي سيقت للتمثيل لهذه الصورة الثالثة المعكوسة.

فمن النماذج التي عثرنا عليها في كتب التفسير وعلوم البلاغة قوله تعالى: ﴿...ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ...﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة]. تدخل هذه الصورة في زمرة تشبيهات الصورة الثالثة؛ لتوفر الأركان الثلاثة فيها (المشبه، الأداة، المشبه به)، وهي كالتالي (البيع، مثل، الربا) مع حذف الطرف الرابع وهو (العلاقة) التي تربط بين الطرفين المشبهين، ولقد أقر معظم من تناول هذه الصورة التشبيهية بأنها معكوسة بحجة الأولى أن يقال: {{إنما الربا مثل البيع}}[1]، لأن الكلام في الربا وليس في البيع ونحن نقول كان الأولى لهؤلاء أن يتساءلوا أولا هل عملية العكس هذه تدخل في إطار الصور التشبيهية التي عمد القرآن الكريم إلى إقامتها لأغراض تصويرية وتوضيحية مختلفة؟ أم أن القرآن الكريم جاء بها على لسان الكفار والمنافقين ليبين لنا طريقة تفكيرهم في هذه العملية الربوية؟ والجواب عن هذين التساؤلين يكمن في الجملة السابقة لهذه الصورة والمتمثلة في قوله تعالى: ﴿...ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ ...﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة]. فالقول هنا يشير إلينا بأن الصورة كانت من نسج أكلة الربا. وهنا نتساءل أيضا، هل هذا النسيج كان من أجل إقامة القياس للتسوية بين عملية الربا والبيع؟ أم كان من أجل المبالغة بأن جعلوا الأصل فرعا والفرع أصلا؟؛ وإذ كان الأمر الأول هو المراد من قولهم هذا، فعملية التقديم والتأخير لا تؤثر في الأمر شيئا، لأن الطرفين في نظرهما متساويان، سواء قالوا: (إنما الربا مثل البيع أو البيع مثل الربا): {{أي هو نظيره

---

(1) التحرير والتنوير -التفسير السابق- ج1 -ص383.

فلم حرم هذا وأبيح هذا؟...أي هذا مثل هذا وقد أحل هذا وحرم هذا...}}[1]. وهذا التساوي يؤكده الرازي في تفسير هذه لصورة؛ إذ يرى أن البيع والربا تساوَيا عندهم فصار البيع مثل الربا وعكسه سواء[2]. وإذا اعتمدنا هذا التساوي بين الطرفين فلا تكون أمامنا صورة تشبيهية معكوسة، بل نرى هذه العلاقة بين الطرفين علاقة تقريرية، أي أنها تقر بوجود تشابه تطابقي جمع بين الطرفين، وهذا الطرح يخول لنا نقلها إلى النوع الأول من التشابه التقريري.

وأما إذا كان الأمر الثاني -وهو المبالغة هو المراد من قولهم هذا خلافا للصورة العادية المفصلة للتشبيه -كما جاء في الكشاف: {{...فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا: لقد اشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهما بدرهمين جاز، فكان ذلك إذا باع درهما بدرهمين...}}[3] -جاز لنا أن نسميه تشبيها معكوسا. وإذا كان لا بد من ترجيح رأي على آخر، نميل إلى التحليل الأول ونستند في ذلك إلى تفسير صاحب الكشاف نفسه للجملة التي أعقبت هذه الصورة مباشرة فيقول: {{وقول: وأحل الله البيع وحرم الربا) إنكار لتسويتهم بينهما}}[4] إذاً فالتسوية هي المراد من قولهم السابق (إنما البيع مثل الربا)، أي أنهم ساووا بين البيع والربا إلى درجة استوى عندهم التقديم والتأخير كما جاء في تفسير الرازي السابق. ومما يزيد في ترجيحات الغرض الأول، أن عملية الربط بين الطرفين المشبهين جاءت على لسان الكفار والمشركين، ولم تأت على طريقة التشبيهات الأخرى في التصوير القرآني لأكلة الربا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ..(٢٧٥)﴾ [البقرة]. كما أن التشبيهات التي تأتي على ألسنة البشر في أسلوب القرآن الكريم تفيد دوما التقرير دون التصوير. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ..(١١)﴾ [إبراهيم] وقوله تعالى أيضا: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ..(١١٠)﴾ [الكهف] ومثله قوله عز وجل: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن

---

(1) تفسير ابن كثير -دار المعرفة - بيروت لبنان-1402- 1982-ج1 -ص327.

(2) ينظر التفسير الكبير -الفخر الرازي- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت لبنان- 1403-1983- م4 -ج7 -ص66.

(3) الكشاف - الزمخشري- دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت لبنان- ج1 -ص391. .

(4) الكشاف - الزمخشري- دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت لبنان- ج1 -ص391.

﴿قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ..﴾ [المؤمنون] ويتبعه في ذلك قوله تعالى: ﴿...فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء] فالتشابه في هذه الأمثلة واضح من خلال التصريح القولي (قالت، قل، فقال)، أو عن طريق الطلب ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾. والمراد في هذه الأمثلة -كما هو واضح- تقرير التطابق في الطبيعة البشرية بين الأطراف المشبهة في كل من المثال الأول والثاني والثالث، وأما المثال الرابع فتطابق فيه يخضع لتحقق نفس القول من نفس المصدر الذي صدرت منه؛ والأمثلة من هذا النوع في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة لا يسمح المجال لذكرها؛ وهي دليل بيِّن على تغليب الجانب التقريري على الجانب التصويري في مجمل التصريحات البشرية في القرآن الكريم. ويؤيد هذا كله ما جاء في التفسير بشأن جواز طبيعة هذه الصورة التقريرية: {{ويجوز أن يكون التشبيه غير مقلوب بناء على ما فهموه أن البيع إنما حل لأجل الكسب والفائدة وذلك في الربا وفي غيره موهوم}}[1].

ويصادفنا -إلى جانب هذه الأنواع المعكوسة السابقة- نوع آخر عده بعض المفسرين، وبعض علماء البلاغة من قبيل التشبيهات المعكوسة، وهذا النوع يصنف ضمن الصور المنكرة لوجود التشابه أصلا، ولكن لا مانع من مناقشة بعض هذه النماذج لنتعرف على وضعيتها اللائقة بها في مصاف الصور التشبيهية؛ ومن بين هذه النماذج نأخذ قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[القلم] والسؤال الذي نطرحه أولا هو: هل هناك صورة تشبيهية في هذه الآية القرآنية قبل أن تعكس؟ فإذا افترضنا -كما جاء في بعض التخريجات التفسيرية أن الأصل في الكلام (أفنجعل المجرمين كالمسلمين)[2] -فإننا لا نجد صورة تشبيهية مُقامة على أساس وجه الشبه، والدليل على ذلك أن الآية تنفي وحدة العلاقة بين الطرفين (الجرم والمسلم) عن طريق الاستفهام الإنكاري ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾، وهذا ما يؤكده صاحب التحرير بقوله: {{والهمزة للاستفهام الإنكاري، فرع إنكار التساوي بين المسلمين والكافرين على ما سبق من اختلاف جزاء الفريقين}}[3]. وإذا كان النفي هو أساس هذه الآية فالتقديم والتأخير لا يغيران من الأمر شيئا، وبالتالي فلا توجد صورة

(1) روح المعاني -المصدر السابق- م1 -ج3

(2) القرآن والصور البيانية -عبد القادر حسين- دار نهضة مصر للطباع والنشر- الفجالة القاهرة- ص85

(3) ألتحرير والتنويز- المصدر السابق- ج22 -ص31.

تشبيهية على الإطلاق،حتى وإن سلمنا بقول القائل: {{... أما إذا جعل المعنى ليس المصلحون كالمفسدين والمتقون كالفجار، والمسلمون كالمجرمين في سوء الحال فلا عكس في التشبيه}}[1]. وبهذه الطريقة نفسها يمكننا تحليل النماذج الباقية وبخاصة التي تتصف بالأسلوب الإنكاري سواء كان ذلك بهمزة الإنكار، كما هو الأمر في قوله تعلى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ...(١٧)﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾ [ص]. أو بأداة من أدوات النفي كما هو الشأن في قوله تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ...(٣٢)﴾ [الأحزاب]، أو في قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ...(٣٦)﴾ [آل عمران].

لقد اعتمدنا في تناولنا لهذه النماذج المعكوسة على القاعدة الأساسية المتبعة من طرف علماء البلاغة في التمثيل للصور المقلوبة في ميداني الشعر والنثر، وإن لم تتفق هذه القاعدة مع تخريجات بعض هؤلاء العلماء لنماذج القرآن الكريم، في مثل قول أحدهم: {{ومنها إخراج الكلام بالتشبيه مخرج الإنكار كقوله تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...(١٩)﴾ [التوبة]...}}[2] وقوله (إخراج الكلام بالتشبيه مخرج الإنكار) يعني أن هناك تشبيه في هذه الآيات، ولكن الحقيقة يؤكدها هو نفسه في قوله: {{... وهذا إنكار على من جعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله واليوم الآخر، وذلك أوفى دلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان، وأنه لا يساوى به مخلوق على صفته بالقياس...}}[3]. إذاً فالتشبيه في هذه الآية لم يصرح به لأنه وقع من قبل الكفار، ولكن صُرِّح بنفيه وإنكاره بصريح الآية.

وانطلاقا من هذه الرؤيا الضيقة في تطبيق القاعدة النظرية للصورة الثالثة المعكوسة نخلص إلى القول بعدم وجود أي نموذج تشبيهي لهذه الصورة من تشبيهات القرآن الكريم. وبهذا ننهي حديثنا عن هذه النوعية الثالثة المعكوسة لننتقل إلى معالجة النوعية الرابعة والأخيرة من تشبيهات القرآن الكريم.

---

(1) القرآن والصورة البيانية –المصدر السابق– ص 58

(2) بديع القرآن –ابن أبي الإصبع المصري –تحقيق محمد شرف – مكتبة نهضة مصر الفجالة– ص 59.

(3) بديع القرآن –المصدر السابق– ص 59.

تدرك دلالات ألفاظ الصور التشبيهية بنوعيها -المفرد والمركب- بواسطة الحواس الخمسة المعروفة، أو بواسطة حاسة العقل، ولهذا السبب أطلق علماء البلاغة على الأول (التشبيهات المحسوسة) وعلى الثانية (التشبيهات المعقولة)، وعادة ما يكون تركيزهم حول وجه الشبه، كما سيتضح ذلك معنا في قول القزويني: {{ووجه الشبه إما واحد أو غير واحد، والواحد إما حسّي أو عقلي}}[1]. ومن وجه الشبه ينطلقون في التعرف على طرفي الصورة، فما كان فيها وجه الشبه محسوسا كان طرفاها بالضرورة محسوسين، وأما إذا كان وجه الشبه عقليا فإن طرفيها لا يخلوان من أمور ثلاثة كما ورد في الإيضاح: {{...والعقلي طرفاه إما عقليان أو حسيان أو مختلفان}}[2]. وأما الطريقة التي سنسلكها في هذه الدراسة فتتناول طبيعة الطرفين أولا، ثم تتناول طبيعة العلاقة بينهما؛ أي أنها دراسة شاملة لدلالات ألفاظ الصورة الواحد، وهذه الدراسة ستضطرنا إلى الجمع بين ما هو حسي، وبين ما هو معنوي، يدرك بواسطة العقل، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالتشبيهات المركبة؛ حيث تجتمع الدلالتان الحسية والمعنوية في صورة واحدة، بل في طرف واحد. ولهذا سنحاول التطرق إلى الجانبين الحسي والمعنوي في الصورة المفردة أولا، ثم المركبة ثانيا.

الدلالة الحسية والمعنوية في الصورة المفردة:

أ-الدلالة الحسية: يبرز الجانب الحسي في التشبيهات الصورة الثالثة بوجه عام وبخاصة في الطرف الثاني منها، ويشمل الطرفين في الصورة التشبيهية المفردة، سواء المطلقة أو المقيدة أو المتعددة، ويطغى الحس البصري -على وجه الخصوص- على الصورة التشبيهية في النماذج التي بين أيدينا، وبالتحديد فيما كان طرفاه مفردين، ولم تخل الصورة البصرية في هذه النماذج من أمور ثلاثة، إما متحركة، وحركتها تشمل الطرفين المشبهين، وإما ثابتة غير متحركة، ويكون ذلك في كلا الطرفين، أو تجمع بين الحركة والثبات فيكون أحد الطرفين متحركا والآخر ثابتا أو العكس.

---

(1) الإيضاح -المصدر السابق-ص 343.
(2) الإيضاح -المصدر السابق-ص 343

نبدأ أولا بالصورة المتحركة، وهي قليلة نمثل لها بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر]. تنم ألفاظ كل من الطرفين الأول والثاني لهذه الصورة على الحركة، فلفظة (واحد) تعني الزمن الذي تستغرقه الاستجابة لأمر الله، فهي إذاً تمثل الحركة السريعة التي تقابلها في الطرف الثاني حركة لمح البصر، والجامع بينهما كما هو واضح السرعة الفائقة، وهي رمز الحركة ودليلها، والذي يلاحظ على هذه الحركة – حسب مدلول الألفاظ – أنها تتميز بطابع الخفة، ولكن نتيجتها تكون شديدة الوقع ونلمس هذه الشدة في وضعية ألفاظ بعض الصور الأخرى كما هو الأمر في تشبيه غليان شجرة الزقوم؛ طعام أهل النار بغليان الحميم، فالحركة هنا تتمثل في قوة الاهتزازات المتتالية ذات الطابع الثوري البركاني، وتشتد هذه الحركة الاهتزازية أكثر في معاني ألفاظ هذه الصورة التشبيهية من قوله تعالى مُشبِّها اهتزازات عصا موسى بحركة الجن: ﴿...فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ... ﴿١٠﴾﴾[النمل]، فحركة (الجن) وإن كانت خفية إلا أن الحس الاجتماعي تعارف على قوتها وشدتها. ويمكن القول بأن الحركة التصويرية في الصور التشبيهية القرآنية ترتبط بالموقف الذي تعالجه كل صورة؛ فمثلا لو أخذنا الصورة التي تعالج موقفا من مواقف يوم البعث، والمتمثل في رسم ساعة الخروج من القبور، فالحركة التي ستحدث في هذه الآونة غير معروفة، ولتعريفها للناس وضع الله تعالى صورة أخرى معتمدة على حركة تقاربها في الطريقة، وليس في القوة والهول، ألا وهي الكيفية التي كان عبدة الأصنام يسلكونها يوم الذهاب إلى زيارتها وما يتبع تلك الزيارة من طقوس دينية. فلنتأمل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج] وهذا اليوم كما عرفه القرآن الكريم شديد وصعب: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس]. ولكن هذه الصورة التشبيهية اكتفت برسم جزء يسير من هذا اليوم، والذي ينحصر في تلك الحركة السريعة التي تحمل معنى الخوف والهلع في كلا طرفي الصورة، فالحركة التي كانت في الدنيا تجاه الآلهة كان يدفعها الخوف من بطش الآلهة وغضبها، ولهذا تكون مصحوبة بنوع من الفوضى والاضطراب، والأمر نفسه ينطبق على الحركة التي تحدث يوم مشهد البعث ولكن بحركة تكون أكثر اضطرابا لشدة الموقف وهوله، وهذا ما يؤكده صاحب الظلال في شرحه لمعنى هذه الصورة التشبيهية بقوله: {{... في مشهدهم ومشيتهم وحركتهم في ذلك

ما يثير الفزع والخوف}[1]، فالحركة إذاً كانت متناسبة مع الموقف فلم تكن شديدة ذات أثر صوتي، بل اكتفت بالأثر البصري؛ لأن المراد من إقامة الصورة كما هو واضح هو الكيفية أو الطريقة التي يسلكها هؤلاء يوم خروجهم من القبور.

وفي الموقف نفسه –موقف يوم البعث وبنفس الحركة، حركة الخروج من القبور– تأتينا صورة تشبيهية أخرى لتلتقط لنا جانبا آخر مغايراً، لا يتمثل في الإفاضة إلى النصب، بل يتمثل في الهيأة التي يكون عليها الناس في هذا اليوم، في صورة بصرية أفقية، تتغلب فيها الهيأة على الحركة؛ لأن الحركة تكاد تنعدم أمام تجمهر الناس في المكان المخصص لرسم الصورة، ورغم هذا فتبقى الصورة التشبيهية مليئة بالحركة والحيوية التي تحملها ألفاظ كل من (الخروج والسرعة والانتشار) من قوله تعالى: ﴿...يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر] ورغم ما في هذه الصورة من حركة، فإن الجانب البصري يبقى هو المُقيِّد لها؛ لأن الجانب الصوتي الذي يلازم هذه الحركة غير مصرح به في دلالات ألفاظ عناصرها.

لم تأت الصور البصرية في التشبيهات المفردة متحركة فحسب، بل نجد الجانب الأكبر منها ثابتا، يدل على انعدام الحركة وفقا لدلالة الألفاظ التي تشكل كل صورة من هذه الصور ويكون ثبات الصور البصرية متمثلا في ثبات الطرفين المشبهين، أي أن كل صورة واحدة تشتمل على جزأين متقابلين تجمع بينهما علاقة ثابتة غير متحركة؛ فمثلا لو أخذنا الصورة التشبيهية من قوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور]. فعلى قدر ما تحمل لفظة (الطواف) من حركة، إلا أن الغرض من سوق هذه الصورة المعبِّرة عن وضعية الغلمان لا يتمثل في الحركة كما هو واضح من السياق، بل نجد الغرض منها كما يبدو في عمومها يتمثل في الشكل الظاهري الذي يُبين حالة بروز الغلمان أمام أهل الجنة، ولهذا فقد قوبل بشكل آخر لشيء آخر وهو (اللؤلؤ) المرتبط بلفظة (المكنون)؛ لما تحمله هذه اللفظة من معنى الصفاء والنقاء، الأمر الذي يؤكد ثبات الصورة البصرية الظاهرة الخلية من الحركة أو تكاد.

ويتكرر الحس البصري الثابت في الأمثلة الأخرى ولكن مع تغاير في الموقف، فنجد (الحور العين) تقابل (اللؤلؤ المكنون)، وكذلك (الولدان) يقابلون (اللؤلؤ المنثور) في صور

(1) في ظلال القرآن –المصدر السابق– م6 ج29 ص 3703

بصرية ثابتة. والشيء نفسه ينطبق على (قاصرات الطرف) المناظرة (للبيض المكنون) في صورة، و(للياقوت والمرجان) في صورة أخرى، وكل هذه الصور وما يماثلها لا نجد فيها الحس البصري المتحرك بقدر ما تبرز فيها السكينة والثبات في جميع أجزائها المتقابلة.

وقد يسبق الصورة الثابتة ما يوحي بالحركة كما سبق القول مع فعل (الطواف للغلمان)، ولكن الشيء الأساسي فيها هو الشكل المحدد بالطرفين، مع وجود الأداة المشيرة إلى إمكانية التقابل، وكذا العلاقة الرابطة بينهما، فلو أخذنا على سبيل المثال قوله عز وجل: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾[الشعراء] لوجدنا أن ألفاظ كل من (الوحي، الضرب، الإنفاق) تحمل معاني الحركة، ولكن إذا تناولنا ألفاظ الصورة التشبيهية ذاتها مثل (الفرق، الطود) وجدناهما يحملان معنى الثبات المصحوب بالقوة التي يبرزها الشكل الظاهري الذي يخضع للحس البصري.

وإلى جانب الصورة البصرية المتحركة، والصورة الثابتة، هناك صورة بصرية تحمل معنيي الحركة والثبات في آن واحد، أي أن أحد طرفيها يحمل معنى الحركة، والآخر يحمل معنى الثبات؛ وهذا ما لاحظناه من خلال تقصينا للنماذج القرآنية للصورة الثالثة من صور التشبيه. وعلى قلة نماذج هذه النوعية فإنه لا يمكن أن نغفل بعض ما ورد منها، وأبرز ما نمثل لها به قوله تعالى في وصف الزجاجة: ﴿... ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. ﴿٣٥﴾ ﴾[النور] وبالرغم من معنى الثبات الذي يوحي به الطرفان المشبهان (الزجاجة والكوكب) إلا أن لفظة (الدري) الموجودة كقيد في الطرف الثاني تؤكد الحركة الضوئية التي تنطبق من (الكوكب)، وبهذا يكون الطرف الثاني من الصورة يؤكد معنى الحركة لا السكون، لأن السكون يعني الكوكب المظلم الذي لا يشع، وليس هو المعنى المطلوب من إقامة الصورة التشبيهية، وهذا يزيد في قوة الحس البصري الذي يميز طابع هذه الصورة الثابتة في جانب، والمتحركة في الجزء الثاني من الجانب الآخر.

لقد تعلقت الحركة في هذه الصورة بالطرف الثاني، ولزم الثبات الجانب الأول منها، ولكن يختلف الأمر في المثال الذي سنورده، إذ ترتبط فيه الحركة بألفاظ الطرف الأول، بينما يخيم السكون والاستقرار على مدلول ألفاظ الطرف الثاني، وهذا ما عايناه في الصورة

التشبيهية من قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢)﴾ [المرسلات] تعني لفظتا كل من (ترمي، الشرر) حركة مستمرة متباينة، وتقابلها لفظة (القصر) التي تنم عن الثبات المصحوب بالارتفاع الشاهق. وإذا ما قابلنا هذين الطرفين في صورة بصرية مرئية لتبين لنا أن الجزء الأول يتحرك في تصاعد شاهق مستمر، وأن الجزء الثاني صامد ثابت يتميز بالعلو الشاهق، وهذه هي العلاقة التي تربط بين الطرفين المشبهين.

والملاحظة نفسها يمكننا تطبيقها على لفظة (الموج) المتواجدة في مثالين اثنين؛ الأول: تقابلت فيه هذه اللفظة مع لفظة (الظلل) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ .. (٣٢)﴾ [لقمان] والثاني: تقابلت فيه مع لفظة (الجبال)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ .. (٤٢)﴾[هود]؛ ففي المثال الأول تعني جانبا واحد -في مقابلتها مع (الظلل)- وهو العلو والارتفاع الذي حدث بعد الحركة القوية للموج؛ لأن الموج شيء متحرك باستمرار. ولهذا فرغم الثبات الذي قد يبدو من مغزى إقامة هذه الصورة التشبيهية - إثر مقابلة استقرار الموج بعد العلو المرتفع ب(الظلل) المرتفع من كل شيء، من سحاب أو غيره - تبقى الحركة القوية تسيطر على الحس البصري بعد قراءة هذه الصورة التشبيهية، لأن لفظة (الموج) تحمل مدلولا حركيا، وبخاصة إذا كانت تصدر عن شيء متحرك، كالماء أو الهواء، أو غيره من الأشياء المتحركة.

والتحليل نفسه ينطبق على لفظة (الموج) المقابلة للفظة (الجبال)، مع اختلاف طفيف في الشكل الظاهري للموج في الأول: ارتفع إلى درجة الانحناء فكان بمثابة (الظلة)، وأما في الثانية: فكان ارتفاعه شاهقا دون أن تنحني ألسنته، بل كانت مسننة تشبه شكل الجبال العالية. ومادام (الموج) في كلا الصورتين لا يستقر على حال بعد ارتفاعه (كالظلة، كالجبال) فإن الجانب الحسي الحركي يبقى دوما يلازمه ويطغى على مدلوله، وأما الثبات فيلازم كلا من (الظلة والجبال) في الطرف الثاني من كل صورة وبهذا تكون الصورة البصرية الحسية متحركة في الجانب الأول، وثابتة في الجانب الثاني منها.

وإذا أردنا أن نلتمس صورة حسية غير بصرية في التشبيهات المفردة من الصورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم التي بين أيدينا، فإننا لا نعثر على أي نموذج من هذا القبيل، إلا إذا التمسنا جانب الحس اللمسي في جزء من العلاقة الرابطة بين (شجرة الزقوم)

وبين (المهل) من قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [الدخان] والتي تتمثل -كما جاء في أحد التفاسير[1] -في سواد اللون وشدة الحرارة. والسواد كما هو معروف يخضع للحس البصري، بينما تُميِّز الحرارة بحاسة اللمس. وهكذا الأمر ينطبق على العلاقة الرابطة بين (السماء) و(المهل) من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج]. ويبقى الحس البصري في هذين المثالين بارزا يميز الطابع العام للصورتين التشبيهيتين.

ب- الدلالة المعنوية: يمثل الجانب المعنوي لدلالات ألفاظ الصور التشبيهية المفردة نسبة قليلة في نماذج هذه الصورة الثالثة، وقد برز هذا الجانب في ثلاث حالات أساسية هي:

الأولى: يكون فيها متمثلا في الطرفين المشبهين بما في ذلك وجه الشبه.

وأما الثانية: فيكون فيها في طرف دون آخر، يتبعه في ذلك وجه الشبه في نفس الخاصية.

وأما الحالة الثالثة: فيتجسد فيها وجه الشبه دون الطرفين المشبهين.

وللتمثيل للحالة الأولى نأخذ قوله تعالى مخاطبا نبيه الكريم: ﴿...ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت]، من الواضح أن الطرف الأول من هذه الصورة التشبيهية يتمثل في (زوال العداوة)، وهي شيء معنوي نخلص إليه بالإدراك العقلي، وعلى هذا الأساس تكون العلاقة الجامعة بينهما وهي على رأي أحد المفسرين: {{المصافاة والمقاربة}}[2] تخضع للتميز العقلي.

لقد تبين لنا من خلال هذا المثال أن الطابع المعنوي ميَّز كلا الطرفين المشبهين وكذا وجه الشبه. وإذا انتقلنا إلى الحالة الثانية حيث يكون أحد الطرفين يتميز بالطابع المعنوي والثاني بالطابع الحسي، فإنه يمكن أن نمثل لها بجواب القسم الذي نجده في قوله تعالى:

---

(1) ينظر التحرير والتنوير -المصدر السابق- ج25 -ص 315.

(2) التحرير والتنوير -المصدر التنوير- المصدر السابق -ج24 -ض293.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات]. يتمثل الطرف الأول في عبارة ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ التي تعني كما جاء في الظلال[1] صدق الحديث الذي سبق القسم؛ والصدق كما هو معلوم صفة معنوية لا نستطيع إدراكها بواسطة الحواس العادية المعروفة، بل نتمكن من كنهها ومغزاها باستخدامنا للعقل، بينما يختلف الأمر في الطرف الثاني الذي تمثله لفظة (النطق) في قوله تعالى: ﴿...مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الذاريات]، {{... فكونهم ينطقون حقيقة بين أيديهم، لا يجادلون فيها ولا يمارون، ولا يرتابون، ولا يخرصون}}[2] فخاصية النطق إذا تدرك بواسطة حاسة السمع بالدرجة الأولى، وأما العلاقة الجامعة بين الطرفين فهي بالضرورة تدرك بواسطة العقل:{{لأن وجه الشبه مشترك بين الجانبين فلو كان محسوسا لكان المعقول الموصوف به محسوسا من ذلك الوجه وهو محال}}[3].

والطريقة نفسها نحلل قوله تعالى: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ... ﴿٢٤﴾﴾ [هود] ستدخل هذه الصورة -كما سبق أن ذكرنا - زمرة التشبيهات المفردة المتعددة؛ والفردية المتعددة تتمثل في مقابلة الفريق الكافر بالأعمى والأصم، ومقابلة الفريق المؤمن بالبصير والسميع، وبهذه المقابلة يتضح لنا أن التشبيه وقع بين عنصرين أحدهما يخضع للإدراك العقلي، ويتمثل في (الفريقين الكافر والمؤمن)، بينما يخضع الطرف الآخر للإدراك الحسي العادي، ويتمثل في (العمى، الصمم، والإبصار، والسمع)، وينطبق على العلاقة الرابطة بين الأطراف المتقابلة ما انطبق على العلاقة في الصورة السابقة، فهي بالضرورة تخضع للإدراك العقلي، وهي على وجه التقريب عدم الانتفاع في كل من الطرفين الأولين، والانتفاع والاهتداء في كل من الطرفين الأخيرين.

ولم يبق أمامنا بعد أن تعرفنا على نماذج الحالتين الأولى والثانية، إلا أن نتعرف على الحالة الثالثة، حيث تكون طبيعة الطرفين تخضع للإدراك الحسي العادي؛ بينما تكون العلاقة الرابطة بينهما تخضع للإدراك العقلي؛ ومن الأمثلة الموضّحة لهذه النوعية، الصورة التشبيهية

---

(1) «وبعد هذه اللمسات الثلاثة في الأرض والنفس والسماء، يقسم الله سبحانه بذاته العليا على صدق هذا الحديث» في ظلال القرآن -المصدر السابق- م6 -ج27 -3381.

(2) في ظلال القرآن -المصدر السابق -م6-ج27 -ص3381

(3) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز -فخر الدين- تحقيق وتقديم بركات أبو علي- دار الفكر للنشر والتوزيع عمان الأردن -1989م -ص98.

المتواجدة في قوله تعالى: ﴿...وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢)﴾ [محمد]. كل الناس يأكلون وعن طريق واحد وهو الفم، ولكن يا ترى هل يأكلون بطريقة واحدة؟ من الواضح في الصورة المحسوسة البارزة عند الناس في حياتهم اليومية، أنهم يتناولون الطعام بطريقة واحدة، وإن اختلفت الأدوات وتنوعت المأكولات، ولكن الجانب الذي تريد الصورة أن توضحه من خلال مقابلة طريقة أكل الكفار بطريقة أكل الأنعام، ليس هو الجانب الحسي كما يبدو من هاتين الطريقتين، بل هو الجانب الخفي الآخر الذي لا يبرز للعيان، أي لا يخضع للإدراك المحسوس بأنواع الحواس الخمسة المعروفة، وإنما يفهم بواسطة الإدراك العقلي. وهذا ما يؤكده صاحب روح المعاني في تفسيره لهذه الصورة التشبيهية –بعد استعراضه لرأي سيبويه ورأي أكثر المُعربين –بقوله: {{.. والمعنى أن أكلهم مجرد من الفكر والنظر كما تقول للجاهل تعيش كما يعيش البهيمة لا تريد التشبيه في مطلق العيش ولكن في خواصه ولوازمه، وحاصله أنهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أمورهم}}[1] . إذا فالعلاقة الجامعة بين طريقة أكل الكفار وطريقة أكل الأنعام تتمثل في خلو الفكر في كلٍّ من الطرفين، فالحيوانات تأكل بدون عقل، وهذه طبيعتها، وتمثل الجانب الطبيعي في الصورة، بينما الكفار يأكلون دون عقل رغم توفره لديهم، وهذا هو الجانب الملفت للنظر في هذه الصورة التشبيهية.

والطريقة نفسها تمكننا أن نتوصل إلى العلاقة التي تربط طرفي الصورة التشبيهية من قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ..(٣٢)﴾[المائدة]. إن عملية القتل في كلا الطرفين يمكن أن تدرك بواسطة الحس عموما، والبصر منه خصوصا، ولكن هل العلاقة التي تجمع بين العمليتين، الأولى والثانية تدرك بواسطة الحواس الخمسة المعروفة؟ على اعتبار أن طبيعة الطرفين حسية، أم أنهم غير ذلك؟ لقد اختلفت في بادئ الأمر الآراء حول إيجاد العلاقة القائمة بين قتل النفس الواحدة وبين قتل الناس جميعاً؛ فمنهم من يرى أن العلاقة تكون في كون المقتول نبياً أو إماماً عادلا، وعليه يكون قتله بمثابة قتل لعقول الناس جميعًا، وذلك لأن الإمام أو النبي هو الروح النَّيِّرة التي يحيا بها هؤلاء الناس حياة طيبة، فإذا قتل أصبحوا

(1) روح المعاني –المصدر السابق– م9 –ج26 –ص46.

أمواتاً وهم أحياء، كما تفسر هذه العلاقة أيضا بكونها قائمة عند أهل المقتول؛ لأن الناس جميعاً في نظرهم لا يعدلون قتيلهم. ومنهم من يفسرها بأنها تتمثل في أحادية الجزاء، فالجزاء واحد، ففي الدنيا غضب ولعنة على القاتلين، وفي الآخرة جهنم وعذابها الأليم[1]. وأما صاحب الظلال فيذهب في تفسير هذه العلاقة إلى أبعد من ذلك فيقول:{{... إنَّ قتل نفس واحدة -في غير قصاص لقتل، وفي غير دفع فساد في الأرض -يعدل قتل الناس جميعا؛ لأن كل نفس ككل نفس، وحق الحياة ثابت لكل نفس، فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته، الحق الذي تشترك فيه كل النفوس}}[2]. ويدل اختلاف هذه الآراء حول تحديد العلاقة الرابطة بين الطرفين المشبهين على صعوبة التوصل إلى إدراكها، وذلك لغموضها وابتعادها عن الإدراك الخاضع للحواس الخمسة وهذا يرجح إمكانية التوصل إلى إدراكها عن طريق العقل، ومن هنا وقع وجه الاختلاف بين العقول في إدراكها، لأنها لو كانت معلومة لاستطاعت الحواس بكل سهولة معرفة طبيعتها.

ولعل بهذين المثالين النموذجين تكون الحالة الثالثة للجانب المعنوي في الصورة التشبيهية المفردة قد اتضحت بعض الشيء وبها ننهي الحديث عن هذا المحور إلى تقصي الجانبين المعنوي والحسي في التشبيهات المركبة من الصورة الثالثة من تشبيهات القرآن الكريم.

ب-الدلالة المعنوية والحسية في الصور المركبة.

قد قلنا في بداية كلامنا عن النوعيتين:الحسية والمعنوية لألفاظ الصورة الثالثة أن الجانب الحسي هو المُميِّز لها، خصوصا في الطرف الثاني متها، وهذا ما تؤكده النماذج المركبة من هذه الصورة، إذ نجد الطرف الأول على العموم يتسم بالطابع العقلي، إذا استثنينا بعض النماذج القليلة ذات الدلالة الحسية، بينما يُميِّزُ الطَّرفَ الثاني الطَّابَعُ الحسي في مجمل دلالات ألفاظه. ويعد هذا طبيعيا؛لأن هدف التشبيه في جل التشبيهات القرآنية هو تشبيه الخفي بالجلي؛ والجلي عادة ما يكون معروفا ومدركا بالحواس، حتى تتضح صورة الطرف الأول الذي يُراد توصيلة إلى إدراك الآخرين، وهذا ما سنتعرف عليه من خلال تناولنا للدلالة المعنوية للصور المركبة.

---

(1) ينظر الجامع لأحكام القرآن -المصدر السابق- م3-ج6-146-147.

(2) في ظلال القرآن -المصدر السابق- م2-ج6 -877.

1-الدلالة المعنوية: فإذا تناولنا الأمثلة التي بين أيدينا بالتحليل وجدنا أن الطابع العقلي يُميِّز طبيعة معظم ألفاظ الأطراف الأولى فيها؛ سواء كانت جل ألفاظها مستقلة في دلالاتها، كما هو الحال في الصور التي تبتدئ بوصف الحياة الدنيا مثل: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ..﴿٣٦﴾﴾ [محمد] أو ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..﴿٤٥﴾﴾ [الكهف]، أو ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ..﴿٢٠﴾﴾ [الحديد]، أو كالتي تبين تيه وضلال المنافقين والكافرين على حد سواء في مثل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة]، ومنها كذلك: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ..﴿١٧٦﴾ [الأعراف]. من الواضح على دلالات هذه الأطراف الأولى المشبه أنها تنحو إلى تجميع المعنى في الفكر؛ فالحياة الدنيا تغيير عام يضم جميع المتناقضات؛ فهي تؤدي معنى شاملا لكل ما هو ظاهر أو خفي، عقليا كان أم حسيا، ولهذا لا نستطيع تمييزها بمُميزات دون أخرى. وكذلك الأمر بالنسبة لباقي التعبيرات مثل (الضلالة، الهدى، الانسلاخ من الآيات، الغواية من الشياطين، الخلود إلى الأرض، اتباع الهوى)، فكل هذه المعاني حسب منظورنا تخضع للإدراك العقلي، وذلك بعد إجالة الفكر في تجميع عناصرها. وعلى العموم فجل معاني الألفاظ السابقة يمكن تفسيرها بواسطة الفكر بعيدا عن الحواس الخمسة المعروفة.

ونبقى دائما مع الأطراف الأولى إذ تعترينا بعض النماذج التي تختلف دلالات ألفاظها عن بعضها البعض، فمنها ما يمكن تفسيره عن طريق الإدراك الحسي، ومنها ما يمكن تفسيره عن طريق الإدراك العقلي. وللتمثيل لهذه النوعية ندرج الأطراف الآتية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ..﴿٢٤﴾﴾ و﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴿٢٥﴾..﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم] و﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴿٢٦١﴾﴾[1] و﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ..﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة]. فلو أخذنا المثال الأول وبحثنا عن طبيعة لفظة (الكلمة) وجدناها تتكون من حروف وألفاظ تختلف باختلاف حجمها؛

(1) (شهادة أن لا إله إلا الله...القرآن...)... إلخ-روح المعاني -المصدر السابق-م5- ج13- 214-215.

فهي إما تُنطق فتُسمع، أو تُكتب فتُقرأ أو تُشاهد، وذلك على اختلاف آراء المفسرين في تحديد معناها. ولهذا نستطيع القول أن دلالاتها المختلفة تقترب من المعنى الحسي، السمعي أو البصري. وأما إذا تناولنا لفظتي كل من (الطيبة، الخبث) في نفس المثالين -وهما صفتان: إحداهما تمثل الجانب الحسن، والأخرى تمثل الجانب السيئ الرديء- وجدناهما تخضعان لمنحنى النسبة والتناسب فالذي يبدو عندك طيب، فقد يبدو لي عكس ذلك، أو على الأقل ليس بالدرجة التي قيّمتَه بها. وهكذا الأمر بالنسبة لصفة (الخبث) فبعض المجتمعات ترى أن بعض السلوكيات خبيثة، وفي نفس الوقت تنظر إليها مجتمعات أخرى على أنها عكس ذلك. ولذا نرى أن هاتين اللفظتين (الطيبة والخبث) من الصواب تركهما للتقييم العقلي؛ حسب طبيعة وميول العقل الجمعي في كل مجتمع من المجتمعات، بل في كل فئة من الفئات ذات الطابع العقلي المُمَيَّز. ولكن إذا عدنا إلى مدلول كل لفظة مع نظيرتها في السياق لتبين لنا أن لفظة (الطيبة) مجتمعة مع لفظة (الكلمة) تميلان إلى تأدية المعنى الحسي أكثر من المعنى العقلي، والدليل على ذلك الأثر الحسي الذي ينتج من وراء هذه (الكلمة الطيبة) وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿...ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت]. فالتأثير إذاً يمكن أن ندركه بواسطة حواسنا، لأن أثر الكلمة يبدو من تجاوب الآخرين معها. وكذلك الأمر بالنسبة للكلمة (الخبيثة) التي تؤثر سلبا في نفسية السامع فينفعل معها في اتجاه عكسي ندرك عواقبه بواسطة حواسنا المعروفة حسب طبيعة الانفعال وسلوكياته المختلفة.

وبهذه الطريقة نفسها يمكن تحليل المثالين المتبقيين، لأن (نفقة الأموال) عملية نستطيع معاينتها بواسطة الحواس العادية، بينما لا تخضع العبارات المقيّدة لهذه النفقة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أو ﴿...ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ..﴿٢٦٥﴾﴾ إلى نفس المعاينة؛ لأنها تتعلق بالجانب الداخلي للنفس البشرية؛ فهي لا تدرك بواسطة الحواس، بل تبقى خفية يمكن الوصول إليها عن طريق الإحساس الداخلي الذي يبقى خاضعا للاستنتاج العقلي.

من الواضح بعد استعراضنا لهذه النماذج التي تمثل الأطراف الأولى للصورة التشبيهية أن الجانب المعنوي ينفرد أحيانا بمدلول ألفاظ الجزء الواحد من هذه الصورة،

ويتصل أحيانا بالجانب الحسي لدلالات ألفاظ أخرى، تشترك في نفس الطرف، وكل هذا الأمر ينطبق على الأطراف المشبهة، بينما يختلف الأمر عندما تكون الأطراف الأولى مشبها بها، إذ ينفرد الجانب الحسي فيشمل جميع دلالات ألفاظ الطرف الأول، كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ ...﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]. تمثل ألفاظ هذا الطرف الأول مشاهد متكررة لا ينكرها النظر، كما أن مادة (الزبد) التي تطفو فوق سطح مياه السيول وما تحمله من غثاء عملية بارزة للمعاينة والمشاهدة بحاسة البصر. ولا يعد هذا التقديم والتأخير- الذي طرأ على هذه الصورة- من قبيل عملية القلب أو العكس التي يتحول فيها المشبه به مشبها أو العكس؛ لأن العملية التشبيهية قائمة على أصولها الطبيعية، مع فرق في تقديم الطرف الثاني على الأول، وهذا نوع من أساليب القرآن الإعجازية.

والوصول إلى هذه النوعية الحسية الوحيدة في مجموع الأطراف الأولى يجعلنا نقلب الصورة لنرى طبيعة الطرف الثاني منها، ليكون بمثابة منعطف لدراسة الجوانب الحسية والمعنوية في الأطراف الثانية التي لم نتطرق إليها أثناء تناولنا للأطراف الأولى السابقة، وذلك لتسيير التحليل، وتجنب التكرار والملل.

2- الدلالة الحسية: نعود فنقول أن هذا الطرف الحسي البصري المركب يمكن تقسيمه إلى قسمين لارتباطه بتعددية الطرف الثاني -على الرغم من اتحاده في صورة مرئية واحدة- الذي يتمثل في لفظتي (الحق والباطل)؛ فلفظة (الحق) التي تعني الجانب المعنوي تقابل الجانب المحسوس المتمثل في (الماء) وما يتبعه من الأشياء النافعة للناس، كالحطب وغيره، بينما لفظة (الباطل) - والتي تمثل كذلك الجانب المعنوي- تقابل هي الأخرى لفظة (الزبد) المحسوس من نفس الصورة المركبة. وعلى هذا الأساس تكون هذه الصورة بمثابة المثال لانفراد الطرف الأول بالطابع الحسي ولانفراد الطرف الثاني منها بالطابع المعنوي الخاضع للإدراك العقلي.

وإذا تتبعنا بقية الأطراف الثانية في مثل هذه الصور المركبة وجدنا أن الطابع الحسي هو الغالب على مجموع طبيعة ألفاظها - مع تواجد بعض الألفاظ التي يمكن إخضاعها

إلى الإدراك العقلي- وأن كل طرف من هذه الأطراف يمثل صورة مركبة قائمة بذاتها، وأن هذا التركيب يعتمد في جل نماذجه على الإحساس البصري الذي يتميز بالثبات أحيانا، وبالحركة أحيانا أخرى، والجمع بينهما في حالات أخرى، فمن الصور المركبة ذات التصوير الحسي الثابت قوله تعالى في وصف نوره: ﴿...كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..﴿٣٥﴾﴾ [النور].

تمثل هذه الألفاظ صورة بصرية ثابتة بدءا من (المشكاة التي تحتوي على (المصباح) الموجود داخل (الزجاجة) التي تشبه في لمعانها (الكوكب الدري)، والمصباح نفسه يوقد من زيت يخرج من شجرة الزيتون كما قيل[1]، والتي تمتاز بصفاء زيتها الذي يكاد يضيء من صفائه. والبصر في هذه الصورة يمكن أن يستقر على أجزائها الثابتة مثل (المشكاة، المصباح، الزجاجة، الكوكب، الشجرة، الزيت). وكل هذه الأجزاء ترسم لنا صورة واحدة ثابتة، إذا استثنينا الحركة الخفيفة التي تحدث من لمعان الكوكب.

ومن الصور البصرية الثابتة الأجزاء أيضا ما نجده مجسما في ألفاظ الطرف الثاني من قوله تعالى في وصف الأموال التي ينفق في سبيل الله: ﴿...كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ..﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة] تمثل هذه الألفاظ لوحة طبيعية تحتوي على عناصر ثابتة، فالجنة تستمد ثباتها باستقرارها بين طيات التراب، وأما السنابل فهي الأخرى تستمد ثباتها في استنادها إلى الحبة المغروسة في الأرض، وإلى عدم مغادرتها الحيز الذي تملؤه خارج الأرض في الهواء. وأما الحبات فيرجع استقرارها إلى استقرار نمو السنبلة في الأرض، لأن حركة النمو قد تمّت وانتهت في هذه الصورة الأخيرة الثابتة.

وإلى جانب الصورة البصرية الثابتة الأجزاء، هناك صور بصرية متحركة الأجزاء، وحركة الأجزاء تعني عدم استقرارها، أي أنها توحي بالحركة الناجمة عن طبيعة ألفاظها المستعملة في الصورة؛ فلو أخذنا على سبيل المثال الطرف الثاني من الصورة التشبيهية التي تُبيّن صفة أعمال الكفار فهي: ﴿...كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا

---

(1) «أي يوقد هذا المصباح من دهن شجرة مباركة هي شجرة الزيتون.....» صفوة التفاسير- محمد علي الصابوني- دار القرآن الكريم -بيروت لبنان-م2 -341.

كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ..﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم] لوجدنا أن الحركة قوية، وقوتها تكمن في قوة الرياح التي تمثل بمجموعة من التيارات الهوائية التي تهب من كل مكان، وهبوبها هذا يكون في يوم عاصف، حيث تزداد حركة ذرات الرماد إلى درجة تجعلها لا تجتمع أي جزئية مع الأخرى، وهذا ما يتراءى للناظر لهذه الصورة المعبِّرة عن الحركة الفوضوية غير المستقرة.

وقد تندمج الحركة مع الثبات في الصورة البصرية الواحدة، وذلك بتغير في المشهد، إذ تأخذ الصورة مشهدا آخر تتغير بعض عناصره، الأمر الذي يجعل البصر يتحرك من الإدراك الأول إلى الإدارك الثاني. ونمثل لهذا الموقف بألفاظ الطرف الثاني المقابلة للألفاظ التي تصف نفقة المرائي للناس والذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر: ﴿...فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ..﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة]. إن عناصر الثبات في هذا الطرف تتمثل في (الصفوان) تلك الصخرة الملساء، وفي التراب الجاثم فوقها، وهذا هو المشهد الأول الذي تستقر العين عليه أول مرة، بينما تمثل عناصر (الوابل) –وهو المطر الغزير– وكذلك (الصلد) –الذي يعني الصفة التي يؤول إليها الصخر بعد زوال ذرات التراب من فوقه عقب نزول المطر – المشهد الثاني المتحرك الذي تنتقل المعاينة البصرية إلى رؤية جديدة تختلف عن رؤية المشهد الأول من الصورة.

لقد مثلت عمليتا الثبات والحركة في هذه الصورة الجانب البصري الموضوعي الذي لا دخل للمشاعر النفسية فيه، بينما يختلف الوضع في الصورة المرئية الموالية المقابلة لأعمال الذين كفروا التي هي: ﴿...كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا...﴿٣٩﴾﴾ [النور] تمثل عملية (السراب) حركة بصرية تتحرك في مجال ثابت يتمثل في (القيعة) أو الصحراء بالمعنى المعروف، وتشاهد في لوحة بصرية واحدة، بينما تمثل (الماء) صورة بصرية أخرى رسمتها الحالة النفسية التي عبرت عنها جملة ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ فالظمأ دفع العطشان إلى تخيل صورة للماء، والعطشان هو الآخر دفع بالمستمع أو القارئ إلى تصور نفس المشهد، فهي رؤية ثانية للسراب قسمت الصورة إلى مشهدين متشابهين في الشكل دون المضمون.

إن هذه الحركة البصرية في هذه الأمثلة السابقة لا تستغرق زمنا طويلا فانتقال البصر من المشهد الأول إلى المشهد الثاني يتم بطريقة عادية، بينما يتباعد الزمن في أمثلة أخرى،

إذ تتطلب منا الحركة البصرية انتظار زمن طويل لكي تتغير المشاهد في أذهاننا؛ وتمثيلا لذلك نأخذ ألفاظ الطرف الثاني من الصورة التشبيهية التي تصف المراحل التي تمر بها الحياة الدنيا نحو الزوال: ﴿...كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا...﴿٢٠﴾﴾ [الحديد]. يصور عنصر (الغيث) عملية نزول المطر النافع الذي يساهم في نمو الزرع والنبات، إلا أن نزول المطر لا يعني مباشرة نمو الزرع، بل لا بد من انتظار مدة من الزمن ليتم ذلك، وهذه المرحلة وصفتها ألفاظ عبارة ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾؛ أي أنها مرحلة لعملية نمو الزرع الذي أعجب الزراع. وبعد هذه العملية لا بد من انتظار فترة زمنية محددة ليصير الزرع ناضجا، وعملية النضج هذه عبرت عنها لفظة ﴿يَهِيجُ﴾ لأن الهيجان يعني أن النبات أو الزرع اكتسب قوة تحول له عملية الاستواء والنضج. وبعد عملية الاستواء يتحول النبات ليأخذ صفة أخرى وهي الذبول التي عبرت عنها لفظة ﴿مُصْفَرًّا﴾ فالاصفرار علامة لزوال الحياة من النبات، فهو مؤشر للنهاية التي دلت عليها لفظة ﴿حُطَٰمًا﴾ وهي المشهد الأخير الذي تنتهي به هذه الصورة البصرية المركبة والمتحركة حركة داخلية عن طريق النمو المتواصل للزرع، والثابتة في بعض مراحل نموها، وآخر ثباتها يتمثل في انعدام الحركة والحيوية التي جعلته ينتهي إلى صورة بصرية جامدة لا حياة فيها. نريد القول من هذا كله أن أطوار نمو الزرع المتتالية التي رسمتها ألفاظ هذه الصورة التشبيهية في مشاهد بصرية متتالية تحتاج منا إلى تصور كل مرحلة على حدة، نستطيع جمعها في صورة مركبة واحدة، وتتطلب منا عملية استحضار هذه المشاهد زمنا تختلف مدته قياسا بالزمن الذي يستعمل في ربط الصور البصرية المركبة السابقة.

ومما سبق يتبين لنا أن الصورة التشبيهية المرئية تؤدي دورا فعالا في التأثير النفسي، سواء كانت متحركة أم ثابتة، أو جامدة بين الحركة والثبات، ويزداد تأثيرها أكثر عندما يجتمع فيها السمع مع البصر، والحركة مع الثبات. وسيتضح لنا هذا من خلال تناولنا للطرف الثاني من الصورة التشبيهية التي تصف حالة المرتد عن دينه: ﴿...فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث...﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف]. ترسم لنا ألفاظ الطرف الثاني من هذه الصورة التشبيهية صورة بصرية يتراءى فيها العنصر الحيواني ﴿ٱلْكَلْبِ﴾ المتبوع بالعنصر الإنساني، دلت عليه حركة الهجوم والمتابعة المتماثلة في فعلي المضارعة (تحمل

وتترك)، وهنا تكمن عملية الحركة والثبات؛ حركة الإنسان خلف الكلب، وحركة الكلب أمام الإنسان، وكذا وقوف الإنسان عن الحركة المصحوبة بالصوت، حركة لسان الكلب اللاهث في حالتي الجري والثبات، وكذا صوت الهواء المتدفق من رئتي الكلب المحدث للاهتزازات الصوتية المتتالية. وبالرغم من ضآلة هذه الحركة داخل الإطار العام للصورة، فإن لها دورا فعالا في مضاعفة قوة التأثير،وقد برز هذا في تكرارها مرتين في المشهدين الأول والثاني.

وكلما ازدادت القوة الصوتية في الصورة، كلما ازداد تأثيرها في النفس، وهذا ما نلمسه في ألفاظ الطرف الثاني في الصورة المعبرة عن حالة التيه والضلال التي يتخبط فيها المنافقون، والمعطوفة على الصورة التشبيهية التي قبلها: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَٰعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ...﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة] ترسم لنا هذه الألفاظ لوحة طبيعية تتداخل فيها العناصر الصوتية والبصرية، فمن أصوات الأمطار المتهاطلة، إلى أصوات الرعود والصواعق المخيفة التي ترهق السمع بل تصمه، ومن الظلام الدامس إلى البرق اللامع الخاطف للأبصار، إضافة إلى هذا كله تلك العناصر البشرية المتفاعلة مع هذه العناصر، فهي تتحرك بحركة البرق، وتجمد بزواله إثر انسدال الظلام الحالك عليهم. كل هذه العناصر مجتمعة -صورة وصوتا، حركة وثباتا- جسدت لنا تلك الحالة النفسية التي يمكن أن يشعر بها كل من عاش تلك التجربة تجربة الخوف من الموت، والضياع وسط العناصر الطبيعية القاهرة للاستطاعة البشرية الضعيفة.

نكتفي بهذه الأمثلة التوضيحية للنوعيتين الحسية والعقلية في الطرفين الأول والثاني من الصورة الثالثة المركبة لننتقل إلى تتبعهما في العلاقة الرابطة بين كل طرفين مشبهين.

لقد قلنا فيما مضى أن طبيعة العلاقة التي تجمع بين الأطراف تخضع إلى طبيعة الأطراف نفسها، واستنادنا في ذلك إلى قول الرازي السالف الذكر المفصل لهذه النقطة[1]. وتجنبا لتكرار نفس الأمثلة نكتفي بعرض بعض النماذج للزيادة في التوضيح أكثر، فمثلا

(1) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز- المصدر السابق- ص98.

لذلك نأخذ قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ...﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة]. إذا بحثنا عن العلاقة التي تربط بين الطرفين المتمثلين في عملية الإنفاق في سبيل الله وفي الجنة الواقعة فوق الربوة - التي تثمر بوجود المطر أو بالقليل منه- لما تبيّنت لنا جليا بواسطة ما نمتلك من حواس عادية؛ لأن النفقة وما فيها من ماديات تعد عطاء من الإنسان إلى أخيه الإنسان، وما يتبعها من معنويات، في مثل النية الداخلية التي تصطحب هذه العملية؛ عملية الإنفاق -بعيدة كل البعد عن الجانب الطبيعي لعملية نزول المطر على الجنة، وخروج الثمار منها ضعفين، وفي حالة عدم نزوله، فتكفيها قطرات قليلة من الندى لتؤتي ثمارها. وعلى هذا الأساس إذا أردنا أن يربط بين هذين الطرفين المشبهين يتحتم علينا استخدام الجانب العقلي لاستنتاج العلاقة الجامعة بينهما، ولهذا عده بعض المفسرين بالتشبيه العقلي. ويمكننا أن نلتمس هذه العلاقة في قول صاحب روح المعاني في:{{النمو المقرون بالذكاء على الوجه الأتم}}[1]. وعلى العموم فالعلاقة تبقى مرتبطة بحالة الطرفين المشبهين بحسب التأويل.

وبالطريقة ذاتها يمكن أن نتتبع العلاقة التي تجمع بين الطرفين المشبهين في قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال]. يحتوي الطرف الأول على جزأين؛ الأول: يتمثل في لفظة (المجادلة) وهي النوعية المميِّزة للكلام وتمثل الجانب المحسوس. وأما الثاني: فيتمثل في لفظة ﴿ٱلْحَقِّ﴾التي ترمز إلى الجانب المعنوي. وباجتماع هذين الجزأين تكون الغلبة في هذا الطرف الأول للجانب المعنوي. وأما الطرف الثاني فيضم عدة أجزاء هي: (السائق والمسوق وحتمية الموت)، وتمثل هذه الأجزاء جميعا الجانب المحسوس في هذه الصورة، إذاً من الطبيعي أن تكون العلاقة بين هذين الطرفين بعيدة عن الإدراك الحسي، لأن طريقة المجادلة في الحق ليست هي المراد تبيانها في الطرف الأول، بل الغرض -والله أعلم- هو تبيان حالة المجادلين النفسية والجسدية معا. هذه الحالة تقابلها حالة الذين يُدفعون إلى الموت دفعا، شاخصة أبصارهم إلى مواطن حتفهم، محاولين مقاومة الدفع بكل ما يمتلكون من قوة. إذاً فالعلاقة بين هذين الطرفين

(1) روح المعاني - المصدر السابق- م1- ج3- ص36

علاقة حالية تخضع للإدراك العقلي. ويؤكد هذا صاحب التحرير في تفسيره لهذه الصورة فيرى أن الصورة واقعة في:{{تشبيه حالهم في حين المجادلة في اللحاق بالمشركين بحال من يجادل من يسوقه إلى ذات الموت}}[1].

واستئناسًا بما تقدم من أمثلة وآراء نقول: إنه كلما كان التشبيه مركبا كانت طبيعة العلاقة تدرك بواسطة العقل (الاستنتاج العقلي)؛ بغض النظر عن طبيعة الطرفين الحسية والمعنوية ويمكننا أن نستند في هذا إلى النص الذي سنورده لعبد القاهر الجرجاني أثنا حديثه عن وجه الشبه، أو كما يسميه بالشبه المنتزع من التمثيل:{{... وخصائص هذا النوع من التمثيل أكثر من أن تضبط، وقد وقفتك على الطريقة، فهذا أحد الوجوه التي يكون الشبه العقلي بها حاصلا لك من جملة من كلام، وأظنه من أقوى الأسباب والعلل فيه، وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو الأولى أن يسمى تمثيلا ما نجده لا يحصل لك من جملة كلام أو جملتين أو أكثر، حتى إن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر}}[2]. ومما يزيد في قوة وجهة نظرنا استدلاله على رأيه هذا بمثال قُرآني مركب آخر يحتوي على طرفين مختلفين، وذلك بقوله:{{ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ..﴿٢٤﴾﴾ [يونس] كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت...}}[3]. ولكي نتعرف على طبيعة العلاقة التشبيهية في هذه الصورة، لابد أن نتعرف أولا وقبل كل شيء على طبيعة كل منها (الطرفين)؛ تتميز هذه الصورة التشبيهية بفردية الطرف الأول وتركيبة الطرف الثاني؛ فالحياة الدنيا كما سبق أن بيّنا -إثر تقصينا لطبيعة الطرف الأول- لفظة عام يحتمل كل ما هو موجود فوق هذه المعمورة، وعليه لا نستطيع حصرها في موضوع دون آخر من موضوعات الحياة الدنيا، ولكن بإمكاننا تغليب الجانب المعنوي على الجانب الحسي، إذا

(1) التحرير والتنوير- المصدر السابق- ج9-ص268.
(2) أسرار البلاغة -عبد القاهر الجرجاني -تحقيق عبد المنعم خفاجي - مكتبة القاهرة -1399-1979- ج1 -ص 218.
(3) أسرار البلاغة - المصدر السابق- ج1 - ص218.

نظرنا إلى الوضعية المناسبة لمفهوم الحياة الدنيا في هذه الصورة، وهذا ما نلمحه في قول أحدهم: {{شبه الله عز وجل الدنيا في سحرها وفتنتها وإغرائها...}}[1]. إذاً فالجانب المعنوي تمثله صفات (السحر، الفتنة، الإغراء) وغيرها مما يدل على بهرجة الدنيا ونعيمها. وأما فيما يخص الطرف الثاني فإن الجانب الحسي قد تغلب على طبيعة ألفاظه؛ فصورتا (الماء والنبات، وما يصحبهما من حس بصري متحرك وثابت وآخر معنوي) يمثلان هيئة واحدة تقابل هيأة الحياة الدنيا بمركباتها التي لم يصرح بها. وبهذا نخلص إلى القول: بأن العلاقة بين المشبهين تتمثل في الهيأة المنتزعة من مركب الهيئتين؛ الأولى والثانية، وأن طبيعتها تخضع للإدراك التصوري العقلي. وهذا النسق التحليلي لهذا المثال وغيره من الأمثلة السابقة يمكن تطبيقه على باقي النماذج الأخرى من الصورة الثالثة المركبة.

وإذا كان الحديث عن الدلالتين الحسية والمعنوية لألفاظ الصورة الثالثة المركبة قد أتى على نهايته، يمكننا الانتقال إلى تناول الصورة الرابعة والأخيرة من الصورة التشبيه الفني في القرآن الكريم.

(1) هامش أسرار البلاغة- المصدر نفسه- ج1-ص218.

المبحث الرابع

نمطية الصورة الرابعة

إذا أردنا أن نطبق المقياس الشكلي العام في تحديد معالم الصورة الرابعة، والمتمثل في حتمية التصريح بالطريقين المشبهين مع حذف الأداة ووجه الشبه -فإننا سنلاقي صعوبات في ذلك، نظراً لعدة تداخلات نجدها في الصورة الواحدة، وسنحاول التعرف عليها بنوع من الإيجاز:

1- اشتراك الصورة مع الحقيقة: أي إمكانية إجراء المثال الواحد على وجهين، فإذا أجريناه على وجه الحقيقة فلا تكون هناك صورة تشبيهية، أو العكس. وهذا ما جعل المفسرين يختلفون في إثبات التشبيه، أو نفيه، إلى درجة أن الواحد منهم يدرج إمكانية تحقق الحالتين معا، وهذا ما سنتعرف عليه من خلال تحليلنا لبعض النماذج فيما بعد.

2- اشتراك الصورة التشبيهية مع الصورة المجازية: تعترينا بعض النماذج تحتمل أن نجريها على الوجه التشبيهي، وعلى الوجه المجازي بصفة عامة والاستعارة بصفة خاصة في آن واحد. وللتمثيل للإشكالية الأولى نأخذ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن]. ففي عبارة ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ تتوفر عناصر الصورة الرابعة وهي المشبه الضمير في ﴿كُنَّا﴾ والمشبه به لفظة (الطرائق) مع حذف الأداة ووجه الشبه. وأما لفظة ﴿قِدَدًا﴾ فهي صفة تُقيِّد نوعية الطرائق، الأمر الذي دفع بأحد المفسرين إلى القول:{{... ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ تشبيه بليغ شبه تخالف الأحوال والعقائد بالطرائق تفضي كل واحد منها إلى مكان لا تقضي إليه أخرى}}[1]. ويكون هذا مقبولا في حالة اعتمادنا الجانب القاعدي الذي يحدد هذه الصورة، ولكن إذا اعتمدنا المعنى القريب للفظة ﴿طَرَآئِقَ﴾ في مدلول الآية وهو:{{...الفِرَق...}}[2] فإن الأمر يكون إلى الحقيقة أقرب، وهذا هو الذي ورد في التفسير:{{أي كنا فرقا شتى، ومذاهب مختلفة}} على

---

(1) التحرير والتنوير -المصدر السابق- ج28 -ص24.

(2) لسان العرب- ابن منظور - دار صادر للطباعة والنشر بيروت لبنان- م10 -مادة (طرق)- ص222.

أساس أن الكلام يدور حول تقرير[1] الحقيقة ويبتعد عن المبالغة في وصفها، لأن الأمر يتعلق بالصدق الواقعي في الحياة الأخرى، ولهذا عمد بعض المفسرين إلى:{{عدم اعتبار التشبيه...لأن المحل ليس محل المبالغة}} [2]. ورغم بروز الجانب الواقعي في هذا المثال إلا أن بعض المفسرين يرون إمكانية جواز إجراء الحالتين معا كما جاء في قول أحدهم: {{كنا طرائق قددا ذوي طرائق أي مذاهب أو مثل طرائق في اختلاف الأحوال، أو كانت طرائقنا طرائق قددا متفرقة مختلفة}} [3]. يتبين لنا من خلال هذه الآراء أن النموذج الذي بين أيدينا يمكن إدراجه ضمن نماذج الصورة الرابعة ويمكننا إدراجه أيضا ضمن الأساليب التقريرية التي تصف الحقيقة دون المبالغة في التصوير.

ومن الأمثلة الأخرى التي يمكن أن تجتمع فيها الحقيقة مع التصوير قوله تعالى في وصف المشركين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ .. ﴿٢٨﴾ ﴾[التوبة]. تمثل لفظة ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ الطرف الأول من الصورة التي تقابل لفظة ﴿نَجَسٌ﴾ وهي الطرف الثاني منها مع انعدام الأداة والعلاقة التي تربط بينهما صراحة وهذا الشكل في نظر قواعد التشبيه يدخل في إطار الصورة الرابعة أو ما يسمى بالتشبيه البليغ، لأن المعنى كما جاء في التفسير{{... أي كالنجس في خبث الباطن وخبث الاعتقاد حذفت منه أداة التشبه ووجه الشبه فأصبح بليغا}}[4] ويكون هذا مقبولا إذا سلمنا بأن النجاسة شيء مادي، ولكن إذا اعتبرناها صفة لموصوف، فالأمر يختلف فتكون بذاك:{{... نجاسة معنوية نفسانية وليست نجاسة ذاتية}}[5]، وبالتالي فالتعبير في الآية تقرير حقيقي لحالة المشركين الداخلية، ولهذا لا نستغرق إذا وجدنا من المفسرين من يضع عدة احتمالات موضع التحقق كما جاء في روح المعاني:{{أخبر عنهم في المصدر للمبالغة كأنهم عين النجاسة، أو المراد ذوو نجاسة لخبث بواطنهم وفساد عقائدهم، أو لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس}}[6].

---

(1) صفوة التفاسير -المصدر السابق-م3 -ص459.
(2) روح المعاني -المصدر السابق- م10- ج30- ص110.
(3) تفسير البيضاوي - دار الفكر بيروت لبنان- ص764.
(4) صفوة التفاسير- المصدر السابق- ص532.
(5) التحرير والتنوير -المصدر السابق- ج10- ص163.
(6) روح المعاني -المصدر السابق- م4- ج10 -ص76.

ويمكننا تطبيق نفس الملاحظات على باقي النماذج القرآنية التي نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر قوله تعالى في وصف الحيض: ﴿...قُلْ هُوَ أَذًى ...﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة]، وكذلك قوله عز وجل في تبيين علاقة المسلمين فيما بينهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ...﴿١٠﴾﴾ [الحجرات]، وكذلك قوله تعالى: ﴿...وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ...﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة]، ومنه قوله جل ذكره: ﴿...إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ...﴿٢٠﴾﴾ [المائدة] ومثله قوله عز وجل: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ...﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام].

تعد هذه النماذج في نظر المفسرين قابلة لأن تدخل في إطار الحقيقة أو في إطار الصورة الرابعة (التشبيه البليغ). وهذا التداخل بين الحقيقة والصورة في المثال الواحد يفتح أمامنا مجالا واسعا؛ لاعتماد بعض النماذج دون غيرها تبعا للجانب التصويري الذي نراه الغالب على دلالات ألفاظها.

وإلى جانب تداخل الحقيقة مع التشبيه هناك آخر ذكرناه سابقا وهو تداخل الحقيقة والمجاز مع التشبيه وإن كان التداخل يخضع لتباين آراء المفسرين وينحصر في نماذج معدودة. فمثلا لو تناولنا قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ...﴿٦١﴾﴾ [التوبة]. يرى بعض المفسرين[1] أن عبارة ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ تشبيه بليغ على أساس أن أصل الكلام هو كالأذن في تلقي المعلومات فحذفت منه الأداة ووجه الشبه على سبيل التشبيه البليغ، ولكن يرى البعض الآخر أن هذا القول يمكن أن يخرج على ثلاثة أوجه: فإما على طريق المجاز، وإما على طريق التشبيه، وإما على طريق الحقيقة، وهذه الآراء الثلاثة أوردها صاحب روح المعاني في قوله: {{وهي في الأصل اسم للجارحة وإطلاقها على الشخص بالمعنى المذكور،كما يؤيده بعض الروايات من باب المجاز المرسل على ما في المفتاح؛ كإطلاق العين على ربيئة، حيث كانت العين المقصودة منه. وصرح غير واحد أن ذلك من إطلاق الجزء على الكل للمبالغة كقوله:

إذا ما بدت ليلى فكلي أعين   وإن هي ناجتني فكلي مسامع

---

(1) التحرير والتنوير - المصدر السابق- ج10- ص+242 صفوة التفاسير -المصدر السابق-م1 -ص549.

وقيل إنه مجاز عقلي كرجل عدل وفيه نظر. وما قيل إن مرادهم بكونه عليه الصلاة والسلام أذنا تصديق لكل ما يسمع من غير فرق بين ما يليق بالقول بمساعدة أمارات الصدق له، وبين ما لا يليق به فليس من قبيل إطلاق العين على الربيئة، ولذا جعله بعضهم من قبيل التشبيه بالأذن... وقيل إنه على تقدير مضاف أي ذو أذن}}[1].

وهناك نماذج أخرى ذهب بعض المفسرين في تخريجها مخرج الاستعارة بالرغم من خضوعها لقواعد الصورة التشبيهية الرابعة. وهناك نماذج أخرجوها مخرج التشبيه بالرغم من خضوعها لقواعد الاستعارة؛ ونمثل للنوع الأول بقوله تعالى: ﴿...هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ...﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة]. فيرى صاحب التحرير والتنوير أن في هذه الآية استعارتين والجامع بين طرفي كل استعارة هو شدة الاتصال[2] ويؤيده صاحب صفوة التفاسير في تحليل هاتين الصورتين بقوله: {{استعارة بديعية شبه كل واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق... باللباس}}[3].

ولكن بعض المفسرين يخرجون هاتين الصورتين مخرج التشبيه باعتبار أن التصاق وامتزاج كل من الزوجين بصاحبه يشبه الثوب في امتزاجه بالجسد[4]. ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ...﴿٣١﴾﴾ [التوبة]. فهذه الصورة تشتمل على طرفين، مشبه: ويتمثل في قوله ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾ وهو مفرد متعدد، ومشبه به وهو قوله ﴿أَرْبَابًا ﴾مفرد مطلق. وبتوفر الطرفين مع عدم التصريح بالأداة ووجه الشبه تدخل هذه الصورة طبيعيا في مجال الصورة الرابعة، أو ما يسمى (بالتشبيه البليغ). غير أن بعض المفسرين لا يرون هذا بل يُخرجون هذه الصورة مخرج الاستعارة والمجاز أحيانا، والحقيقة أحيانا أخرى. ومن ذلك قوله أحدهم: {{...ونظير ذلك قولهم: فلان يعبد فلانا إذا أفرط في طاعته، فهو استعارة بتشبيه الطاعة بالعبادة، أو مجازا مرسلا بإطلاق العبادة وهي الطاعة مخصوصة على مطلقها

(1) روح المعاني- المصدر السابق -م4- ج10 -ص126.
(2) التحرير والتنوير - المصدر السابق- ج1- ص182.
(3) صفوة التفاسير- المصدر السابق- م1 ص123.
(4) الجامع لأحكام القرآن -المصدر السابق- م1- ج ص 316+ روح المعاني -المصدر السابق- م1- ج2 -ص66.

والأول أبلغ، وقيل اتخاذهم أربابا بالسجود لهم ونحوه مالا يصح إلا للرب عز وجل وحينئذ فلا مجاز...}}[1]. ويذهب البعض الآخر إلى اعتماد التشبيه وتثبيته بتقدير الأداة ووجه الشبه، على أساس أن تكون الصورة عند تمامها تشبيه الأحبار والرهبان بالأرباب في الطاعة في كل شيء[2].

وأما النوع الثاني فنمثل له بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود]. لقد ذهب أكثر من واحد إلى تخرج هاتين الصورتين مخرج التشبيه على اعتبار تشبيه قيام الديار بالزرع القائم، وتشبيه خراب القرى بالزرع المحصود بجامع الهيئة والشكل في كلا الطرفين المتقابلين. ويعد هذا الكلام عموما سليما، ولكن هذا التخريج يجب أن يكتمل ليتعدى بذلك من التشبيه إلى الاستعارة، لأن لفظة الزرع غير مذكورة، ولكن ذكرت لها صفتان هما (القيام والحصيد) للدلالة عليها، وبالتالي نستطيع إخضاع هاتين الصورتين إلى قواعد الاستعارة المكنية التي يحذف فيها المشبه به ويصرح بشيء من لوازمه ليدل عليه. وهذا ما ذهب إليه أحد المفسرين في قوله: {{... شبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وشبه من هلك أهله ولم يبق له أثر بالزرع المحصود بالمناجل على طريق الاستعارة المكنية}}[3].

ومن الأمثلة الأخرى التي أجراها بعض المفسرين مجرى التشبيه البليغ (الصورة الرابعة)، ولكنها تخضع إلى قواعد الاستعارة، ومن بين هذه النماذج قوله تعالى: ﴿...وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ... ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة]. يرى البعض أن في هذه الآية تشبيها، ودليلهم في ذلك أن التصريح بلفظة (الفجر) أخرج الصورة من دائرة الاستعارة إلى دائرة التشبيه[4]. ويرى البعض الآخر أنه لا وجود للتشبيه على الإطلاق؛ لأن التعبير القرآني في الآية عادي ليس فيه مبالغة[5]. وإذا أردنا أن نعرف طبيعة هذه الصورة،

---

(1) روح المعاني- المصدر السابق- م 4 -ج10- ص84.

(2) صفوة التفاسير- المصدر السابق- م1 -ص 532-+ الكشاف- المصدر السابق- م5 -ج2 - ص190.

(3) صفوة التفاسير- المصدر السابق -م2 -ص32.

(4) روح المعاني -المصدر السابق- م1 -ج2- ص66-+ الكشاف -المصدر السابق- م1- ص213.

(5) التحرير والتنوير- المصدر السابق- ج1 -ص183.

فيجب أن نخضعها للتحليل البياني؛ فإذا سلمنا بأنها تشبيه في إطار الصورة الرابعة – حيث يكون المشبه عين المشبه به- فأين المشبه؟ وأين المشبه به؟ فإذا افترضنا أن بياض الفجر شُبِّه بالخيط الأبيض، وأن سواد الليل شبه بالخيط الأسود، وحذفت الأداة وجه الشبه- على حد قول أصحاب الرأي الأول- فإن كلا من البياض والسواد لم يصرح بهما. وإن سلمنا كما قيل بأن لفظة ﴿ٱلْفَجْرِ﴾ دلت على الطرف المحذوف وحلت محله، وهذا يتنافى مع قواعد التشبيه، لأن من شروط التشبيه أن يصرح بالطرفين تصريحا بيِّنا،وبهذا فإن احتمال إجراء الصورة الرابعة على هذه الآية يبقى ضعيفا، وهذا ما يقوي إمكانية إجراء الجانب الاستعاري في هذا المثال، لأن من شروط الاستعارة حذف أحد طرفين، وقد لا حظنا هذا الحذف في هذه الآية. ثم إنه من قواعد الاستعارة التصريح بالقرينة التي تمنع أن تكون اللفظة المعارة حقيقة، أي أن لفظة ﴿ٱلْفَجْرِ﴾ منعت من أن يكون كل من الخيطين الأبيض والأسود على وجه الحقيقة، وهي بهذا تكون استعارة تصريحية طبقا لقواعد الاستعارة المتعارف عليها عند علماء البلاغة المتأخرين.

نريد بهذه الاختلافات المذكورة لدى المفسرين حول التخريجات المختلفة للصورة الواحد أن نمهد للنماذج التي سيكون كلامنا حولها ضمن محاور هذه الصورة الرابعة في الأنواع الأربعة السالفة الذكر.

النوع الأول: الإفراد:

لقد بينا فيما سبق أن لهذا النوع ثلاثة أنماط هي: (المطلق، المقيد، المتعدّد) وستتعرف على جل هذه الأنماط من خلال تناولنا لنماذج الصورة الرابعة.

1- المطلق: سبق أن بينا أن الإطلاق نعني به خلو الطرفين المتقابلين من أي قيد لفظي وأنه يتعلق بالتشبيهات المفردة دون المركبة. وخلو الطرفين من القيود اللفظية في هذه الصورة الرابعة -التي تحذف منها الأداة ووجه الشبه- يسمح لقيام صور بلاغية لها تأثيراتها المختلفة، تتميز عن وضعيتها في الصور التي يصرح فيها بقيد لفظي، أو بقيود لفظية متنوعة وهذه التأثيرات تبرز من خلال الحالة التي يكون عليها الطرفان المتقابلان؛ ففي قولنا (محمد أسد) جعلنا الطرفين يتحدان في كل شيء، دون أن نفصل أو نخصص جانبا أو

جوانب معينة بلفظة أو بلفظتين؛ مما يدل على القيد الجزئي للصورة. وهذه الميزة هي التي جعلت المفسرين يذهبون في أكثر من مرة -كما سبق أن بينا- إلى تفسير النماذج القرآنية لهذه الصورة الرابعة تفسيرا حقيقيا يبتعد عن المبالغة، ساعدتهم في ذلك الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في تبيان دلالات الأطراف المتقابلة، التي سنتعرف عليها فيما بعد.

لقد اعتمد القرآن الكريم الأسلوب الخبري في جل نماذجه التي بين أيدينا، ولكنه نوّع في طبيعة الجمل التي اتخذتها لتبليغ طبيعة ونوعية الأخبار، فنجده يتخذ الجملة الفعلية وسيلة من وسائل التبليغ، اعتمد فيها أربعة أفعال أساسية، ساهمت في تحريك نماذج هذه النوعية المفردة المطلقة وهي (جعل، كأن، اتخذ، أصبح). وفعل (جعل) -كما جاء في كتب اللغة يؤدي معاني مختلفة حسب وقوعه في الجملة؛ فقد يؤدي مثلا معنى (أوجد) كما هو حال في قوله تعالى: ﴿... وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ... ﴿١﴾﴾ [الأنعام] أو بمعنى (أنشأ أو شرع) كما في قولنا مثلا: (جعل يقلب كفيه) أو بمعنى (الاعتقاد) كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ... ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف]، أو يؤدي معنى التصيير أو التحويل كما في قوله تعالى: ﴿...إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف]. وأما عن المعنى الذي يؤديه هذا الفعل (جعل) في سياق الأمثلة التشبيهية القرآنية التي بين أيدينا هو معنى (التصيير أو التحويل)، وهذا المعنى يبرز في أمثلة جليا، ويختفي في أخرى، إلى درجة أنه يتشاكل مع معنى الخلق والإيجاد؛ فمن الأمثلة التي يبرز فيها هذا المعنى جليا قوله تعالى: ﴿...قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ... ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف] تعود الهاء في ﴿جَعَلَهُۥ﴾ على الحديد أي أن الحديد بعد النفخ صار نارا، وهل الحديد يتحول إلى نار؟ الجواب طبعا بالنفي، لأن الحديد لا يتحول نارا! وإنما يصير الحديد بعد النفخ أحْمَر كأنه نار في اللون والحمرة. ويبرز معنى (التصيير والتحويل)، في كون الحديد كان بشكل ثم صار بشكل آخر، وهذا يدل على أن فعل (جعل) مبني على معنى (التصيير والتحويل)، الأمر الذي جعل الصورة التشبيهية واضحة دون غموض. ومن أمثلة هذا الضرب قوله عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ... ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون]. تبين لنا هذه الصورة الوضعية الأخيرة التي آل إليها هؤلاء القوم فبعد أن كانوا أجساما متكاملة الأطراف تغيروا بعد الصيحة إلى أجزاء دقيقة متناثرة لا معنى لها، فهي كالغثاء. إذاً ففعل (جعل) هنا أدى معنى (التصيير والتحويل) بشكل بَيّن، وهو ما جعل الصورة التشبيهية أوضح وأبين للعيان.

ومن الأمثلة التي يَدِق فيها معنى (التصيير والتحويل) لفعل (جعل) قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً.. ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]. يشير فعل (جعل) هنا حسب المعنى الظاهر إلى حقيقتين هما: أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض والسماء وأوجدهما بهذه الكيفية (فراشا وبناء)، وبهذا نستطيع القول: أن الأرض خلقت مفروشة والسماء خلقت مبنية هذا إذا أخذنا بالمعنى الظاهر لفعل (جعل). ولكن إذا تسألنا هل الأرض والسماء خلقتا على هذه الهيئة (فراشا وبناء)؟ والجواب يكون بلا، لأن القرآن الكريم أكد أن الأرض ليست مبسوطة، فهي على شكل كرة مفلطحة: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات]. كما أن أكد أن طبيعة السماء كانت تشبه طبيعة الدخان فهي: {{... كانت قبل خلقها مثل الدخان، والتخصيص في التشبيه بالدخان يشير إشارة قوية إلى أن مادة السماء الأولى كانت تشبه الدخان العادي في أهم صفاته فكانت مفككة الأجزاء مظلمة وخفيفة منتشرة في الفضاء كالغاز والسحاب وساخنة إلى حد ما...}}. وإذا اقتنعنا بأن طبيعة الأرض والسماء كانت بشكل ثم تغيرت بشكل آخر، جاز لنا أن نثبت لهذا الفعل (جعل) معنى التصيير أو التحويل. ومن هذا المنطلق يكون الجانب التشبيهي أبلغ في هاتين الصورتين. فالأرض رغم كرويتها وكثرة الجبال والنتوءات بها في مقابل الأجزاء المبسوطة تشبه الفراش؛ سواء في الهيئة أو فيما يتعلق بخصائص الفراش المختلفة. وكذلك الأمر بالنسبة للسماء، فبالرغم من أن طبيعتها جزئيات الدخان المتحركة، إلا أنها شُبِّهت (بالبناء) -الذي هو الحائط كما جاء في كتب اللغة -لثباتها وعدم زوالها من مكانها، فهي متراصة متماسكة تماسك أجزاء البناء مع بعضها البعض.

ويمكن تطبيق هذا التحليل على النماذج التي تأتي بهذه الصفة في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا... ﴿١٠﴾﴾ [الزخرف] وكذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ]. ومثله أيضا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾ [نوح]. ونعتمد في هذا أولا: على توفر عناصر هذه النوعية المفردة المطلقة للصورة الرابعة، وثانيا: لتشابه هذه النماذج في الأسلوب الذي صيغت به. ولهذا لا نستبعد إذا وجدنا معظم المفسرين يخرجون هذه الصورة على المنوال الذي سلكه أحدهم في تخريج الصورة الأخيرة: {{فالإخبار عن الأرض ببساط تشبيه بليغ أي كالبساط ووجه الشبه تَنَاسُب سطح الأرض

في تعادل أجزائه بحيث لا يوجد أرجل الماشين ولا يقض جنوب المضطجعين، وليس المراد أن الله جعل حجم الأرض كالبساط لأن حجمها كروي، وقد نبه عن ذلك بالعلة الباعثة في قوله ﴿لَكُمُ﴾ والعلة الغائية في قوله ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا...﴿٢٠﴾﴾ وجعل مجموع النعم التي تحصل من تسوية سطح الأرض مثل الحرث والزرع وإلى نعمة خاصة وهي السير في الأرض}}[1].

ومما يؤكد لنا أن صيغة الفعل الماضي ﴿جَعَلَ﴾ لا تؤدي معنى الإيجاد أو الخلق، بل تؤدي معنى التصيير أو التحويل، ما نجده متمثلا في المثالين الآتيين من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴿١٠﴾﴾ [النبأ]. وقوله عز وجل: ﴿...وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴿١٦﴾﴾ [نوح]. ففي المثال الأول يؤكد الفعل ﴿جَعَلَ﴾ تأكيدا صريحا بأن الليل واللباس شيء واحد لا فرق بينهما إلا في التسمية، وهذا ما جعل أحد المفسرين يخرج هذه الصورة تخريجا طبيعيا فيقول:{{أي غطاء وسترة يستر كل شيء بظلمته وسواده}}[2]. وهذه الخاصية معروفة لليل لا ينكرها أحد، ولكن إذا أمعنا النظر قليلا وجدنا في هذين الطرفين المتقابلين أوجها للالتقاء بين الليل - الذي هو ظاهرة طبيعية -وبين اللباس الذي يطلق على كل ما يرتديه الإنسان من الثياب، وهذه الوجوه حصرها أحدهم في:{{... ثلاثة معان: أحدها أن الليل ساتر للإنسان كما يستره اللباس.. والمعنى الثاني من معنى وجه الشبه باللباس: في المشابهة في الرفق باللابس والملاءمة لراحته، فلما كان الليل راحة للإنسان وكان محيطا بجميع حواسه وأعصابه شبه باللباس في ذلك... المعنى الثالث: أن وجه الشبه باللباس هو الوقاية}}[3]، إذاً ففعل ﴿جَعَلَ﴾ هنا تجاوز المعنى الحقيقي إلى المعنى التصويري الذي يعتمد على أوجه الاختلاف والائتلاف بين الطرفين المشبهين، وهذا ما سيتأكد لنا فعلا عند تحليلنا للمثال الثاني حيث (جعلت الشمس سراجا) والشمس كما نعلم كوكب، والسراج هو المصباح المستعمل في إيقاد النار، فطبيعة الشمس تختلف عن طبيعة السراج، وعليه فالتعبير لا يهدف إلى اتحاد الجنسين بحكم الاختلاف البين بينهما ولكنه يهدف إلى تبيان علاقة أو علاقات

(1) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن -حنفي أحمد- دار المعارف بمصر- ط3 -ص227.
(2) التحرير والتنوير -المصدر السابق- ج26-ص205.
(3) مجمع البيان في تفسير القرآن- أبو علي بن الحسن الطبرسي -دار مكتبة الحياة بيروت لبنان- ج20- ص6.

تجمع بينهما؛ وأول علاقة معروفة لدى الجميع هي: خاصية الإنارة في كل من الشمس والسراج، التي يعرفها الخاصة من بدو وحضر. وأما الخاصية الثانية فيمكن أن نستخلصها من الوظيفة الداخلية لمادتيها، فالسراج تحترق مادته لتعطي نورا، وكذا الشمس فقد أثبت العلم أن مادتها الداخلية تتفاعل في هيجان مستمر لتعطي ضوء، وهذا التفاعل يسبب في تآكل أجزائها المضيئة. وأما الخاصية الثالثة فنستنتجها من الخاصية الثانية، وهي أن الاحتراق أو التآكل في كل من السراج والشمس يؤدي حتما إلى انطفاء النور المنبعث من كل منهما. وهذا ما هو موجود فعلا في حياة السراج، وما هو متوقع من العلماء لحياة الشمس. وبهذه الكيفية يجتمع الجانب العلمي مع الجانب البلاغي في هذه الصورة التشبيهية، وهذا ما يؤكده قول أحدهم: {{ وجعل تعالى الشمس ذات ضياء وشبهها بالسراج الوهاج، فطبيعتها إذاً كتلة نارية من اللهب المضيء والمحيط لمصدر الاتقاد}} [1].

تبيَّن لنا بعد المناقشة لهذه الأمثلة السابقة أن أسلوب الجعل يؤدي معنى التصيير أو التحويل الذي يؤدي بدوره معنى التشبيه –الذي تتحد فيه أجزاء وتختلف فيه أخرى بين الطرفين– ولا يؤدي معنى الاتحاد الكلِّي بين الطرفين المتقابلين، لأن هذا ينقل الصورة من التشبيه إلى التشابه.

وما ينطبق على هذه الأمثلة المتصدرة بفعل ﴿جَعَلَ﴾ من ملاحظات ينطبق على أمثلة أخرى يتصدرها فعل ﴿اتَّخَذَ﴾ الذي يؤدي نفس الوظيفة اللغوية التي يؤديها فعل ﴿جَعَلَ﴾ فالأمثلة التي ستتناولها توضح هذه الخاصية، فعندما نأخذ قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ...﴿٣١﴾ ﴾[التوبة آية 31] نجد أن فعل ﴿ اتَّخَذُوا ﴾ في هذه الآية يفيد معنى ﴿جَعَلَ﴾ أي: {{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء}} [2] والجعل هنا أيضا يفيد معنى (التصيير)، فقد بالغوا في طاعتهم حتى حوَّلوا هذه الطاعة من طاعة عادية في تلبية أوامرهم إلى طاعة خاضعة خضوعا تاما لجميع الأوامر بدون استثناء، وهذه الطاعة عادة تكون للرب الخالق القدير الذي يحيط بكل شيء. وإذا بحثنا عن العلاقة التي جعلت طاعة هؤلاء تقترن بعبادة

(1) التحرير والتنوير –المصدر السابق– م12– ج10 –ص20-21.
(2) التفسير العلمي للآيات الكونية– المصدر السابق– ص162.

الأرباب وجدناها متمثلة في قوله: «إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إيّاهم»[1]. وهنا يكون هؤلاء الناس قد منحوا خصائص ومميزات لهؤلاء الرهبان والأحبار ليست لهم، بل حوَّلوها من مصادرها الطبيعية وهم (الأرباب) إلى هؤلاء (الرهبان والأحبار)، وهنا تكون الصورة التشبيهية قوية قوة الحدث المستعمل في غير موضعه، والمتمثل في عملية العبادة المتخذة من قبل هؤلاء الأقوام لهؤلاء الأشخاص من: (أحبار ورهبان). وهذا التدليل ينطبق على المثال الثاني من قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ...﴿١٦﴾﴾ [المجادلة]. ومعناه كما ورد في التفاسير: {{أي اتخذوا أيمانهم التي حلفوا بها أي أيمانهم الذي أظهروه جُنة؛ أي يستترون بها من المؤمنين ومن قتلهم}}[2]. وتصيير الإيمان مثل (الجنة) يعني أنهم حوَّلوا طبيعة الإيمان الصادق إلى إيمان كاذب، واستغلوا هذا الإيمان في طريق غير طريقه المعتاد، واتقوا به كما يُتقى بالدرع أو بأي شيء آخر، لأن (الجنة) تعني -كما جاء في كتب اللغة كل شيء يستر الإنسان من ثوب أو درع أو شجرة أو أي شيء من الأشياء المادية الساترة، ثم استعملت استعمالا مجازيا فقالوا مثلا: الصوم جُنة، والإمام جُنة، كما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة.

ومن خلال هذه النماذج التي اعتمدناها لتكون مقياسا لبقية النماذج الأخرى التي تؤدي معنى (التصيير أو التحويل) نستطيع القول: بأن صيغتي (الجعل والاتخاذ) بارزتان في أساليب التشبيه القرآنية، لأن المعتاد في الصورة التشبيهية -وبخاصة الصورة الرابعة- أن نشير عن طريق المبالغة إلى تطابق الطرفين في مثل قولنا: (أنت بحر). وفي مثل قول الشاعر: {{فإنك شمس والملوك كوكب}}[3]. ولكن الموجود هنا في أمثلة القرآن يتميز بكون الصورة التشبيهية وقعت بعد حدوث الفعل الذي أوجد بين الطرفين نقاط الالتقاء والمشابهة، أي أن الطرف المشبه صُيِّر ليكون كالطرف المشبه به عن طريق فعل ﴿جَعَلَ﴾ أو ﴿ٱتَّخَذَ﴾. ولكن مع هذا التميز تبقى الصورة التشبيهية واحدة حتى وإن اختلفت الأساليب، مثلا لو أخذنا النماذج التي ورد فيها الفعل الماضي (كان) لوجدنا أن هذا الفعل يؤدي معنى غير المعنى الذي يرتبط به في السياق العادي؛ ويمكننا أن نلحظ ذلك

(1) الجامع لأحكام القرآن -المصدر السابق- م4 -ج8 -ص120.
(2) تفسير ابن كثير - المصدر السابق- م2- ج2 -ص348.
(3) الكشاف - المصدر السابق- م4 -ص77.

في الأمثلة الآتية في مثل قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠)﴾ [النبأ] تتحدث الآية عن حدث لم يقع بصيغه الماضي من الفعل (كان)، ولكنها أكدت على وقوعه فعلا في المستقبل من الفعل الماضي المبني للمجهول (سُيِّرت)، فبعد التسيير يكون فعل الماضي (كانت) قد أدى دوره في إثبات نتائج الحدث بعد التصيير والتحويل الذي يطرأ على طبيعة الجبال التي تصبح شبيهة بالسّراب. إذاً ففعل الكينونة (كانت) قد أفاد معنى التصيير، (فصارت) الذي أدى بدوره معنى التوكيد، لأن الكلام عن الصيرورة بالماضي من الفعل، (كان) يفيد حتمية وقوع الفعل، أي حتمية تحقق الصورة التشبيهية التي تكون فيها الجبال:{{... مدكوكة مبسوسة مثارة في الهواء... فلا وجود لها كالسراب الذي له حقيقة، أو أنها تنعكس إليها الأشعة وهي هباء فتبدو كالسراب}}[1].

نلاحظ من خلال هذا المثال أن فعل الماضي (كان) رغم كونه ساهم في تأكيد تحقيق وقوع الحدث، إلا أن هذا لم يمنع مساهمة الفعل في رسم الصورة التشبيهية في الأذهان قبل وقوعها، لأننا نعرف طبيعة الجبال، ونعرف طبيعة السراب، ونستطيع أن نربط بينهما في صورة تخيلية كما رسمتها الآية الكريمة. ومما يحذو هذه الصورة التشبيهية ما نجده متمثلا في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا (١٩)﴾ [النبأ] إذا ربطنا ضمير الرفع المتصل في (كانت) بالسماء وهو الغالب عند المفسرين، يكون الكلام طبيعيا مع مبالغة مجازية، كأن يطلق الكل ويراد به الجزء؛ أي أن السماء ليست كلها أبوابا، ولكن المقصود منه: {{..كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة كأنها ليست إلا أبوابا مفتحة كقوله: – وفجرنا الأرض عيونا– كأن كلها عيون...}}[2] ولكن لو جاز لنا ربط الضمير في (كانت) بمتقدم محذوف دل عليه الفعل الماضي المبني للمجهول (فتِّحت) أي فتحات وشقوق – فإن الأمر يتغير، إذ تستقيم لنا الرؤية التصويرية للأبواب في مقابل الشقوق والفتحات، أي أن الفتحات التي ستفتح في المستقبل المؤكّد عنه بفعل الماضي (كان) تشبه في هيأتها الأبواب التي نراها ونستخدمها. ويؤكد قولنا هذا أن القرآن الكريم سبق وأن شبه السماء بالبناء أي (الحائط) ومن هنا تكون فتحات السماء شبيهة لفتحات الحائط

---

(1) الديوان النابغة الذبياني– دار بيروت للطباعة والنشر –1402 –1982– ص18.

(2) في ظلال القرآن – المصدر السابق– م6– ج30– ص3807.

وهي الأبواب. وهذه صورة تشبيهية تقريبية وضحت لنا ما سيكون في صورة حية نعيشها ونلمسها في حياتنا اليومية.

لقد لاحظنا من خلال مناقشتنا لما تقدم من نماذج، أن التوكيد المباشر بالأفعال التي استخدمها القرآن الكريم مثل (جُعل، اتخذ، كان) لا يحمل الحقيقة فحسب، بل يحمل إلى جانبها الصورة الموضحة لهذه الحقيقة، وهذا ما نلمسه أيضا في النماذج التي تتصدرها أداة التوكيد (إن)؛ فمثلا لو أخذنا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ...﴿١٠﴾﴾ [الحجرات] لوجدنا أن الآية أكدت أخوة المؤمنين وهذا ما نسلم به جميعا نحن المؤمنين، ولكن هل هذه الأخوة كاملة وشاملة لجميع معاني الأخوة المتعارف عليها، أخوة الدم والرحم؟ طبعا لم يقر الإسلام اتحاد أخوة الدين مع أخوة الرحم في جميع مظاهر الإخاء، لأن أخوة الدين تتمثل في معاني محددة تختلف جزئيا عن معاني أخوة الرحم، لأن هذه الأخيرة هي الأصل الذي يربط بين الناس منذ الأزل، وعليها تقاس جميع أنواع الأخوة. ومن هذا المنطلق يتضح جليا أن التوكيد في هذه الآية قد أفاد في توضيح العلاقة التي يجب أن تكون بين المؤمنين عن طريق توظيف مصدر العلاقة المتمثل في الأخوة؛ فالمؤمنون يجب أن يكونوا في جميع مظاهرهم وسلوكهم مع بعضهم كالأخوة.

ويتكرر هذا التوكيد بنفس الأداة (إن) في نماذج أخرى وبنفس الأسلوب الذي يقر ظاهريا بامتزاج الطرفين المتقابلين في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل]. يؤكد ظاهر الآية حقيقة ذهب إليها بعض المفسرين وهي: أن إبراهيم كان إماما يؤمه الناس ليتعلموا منه أمور دينهم ودنياهم، وهذا مأخوذ من التفسير المباشر للآية المصرح عنه عن طريق التوكيد المصحوب بالماضي من الفعل ﴿كَانَ﴾.

ولما تبين لنا مما سبق أن أسلوب التوكيد لا يدل على التطابق الفعلي بين اللفظ القرآني وبين الواقع، وأن هذه الألفاظ يمكن أن تصطحب المبالغة لتُبلِّغ لنا الحقيقة في بعض أجزائها، وإذا اقتنعنا بهذا، فإنه يمكن أن نلتمس في هذه الآية معنى آخر غير المعنى الأول، والمتمثل في كون لفظة (الأمة) تعني الجماعة وليس كل الجماعة، وإنما الجماعة المؤمنة التي

تتوزع فيها مظاهر الخير والرحمة، وعليه يكون تفسير الآية إن إبراهيم: {{كان في الفضل والفتوة والكمال بمنزلة أمة كاملة}}[1] وبهذا الشكل يبرز الجانب البلاغي في صورة تشبيهية واضحة ومؤكدة في صورة الفرد مقابل أمة كاملة، حيث ينطلق الخيال بانطلاق معاني الصورة غير المقيدة ليبحث عن أوجه الائتلاف التي تجمع طرفي هذه الصورة التشبيهية المفردة المطلقة.

وبهذه الثنائية التقريرية والتصويرية يستمر الأسلوب القرآني في عرض نماذج نوعية المفرد المطلق؛ مما جعل المفسرين يذهبون مذاهب شتى في تأويل اللفظة الواحد داخل الصورة الواحدة؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا..(١٣١)﴾[طه]. تعددت آراء المفسرين حول لفظة (الزهرة) في ربطها بسياق الآية، فالذي ربطها بالحياة الدنيا أوّلها عدة تأويلات منها: {{ولا تمدن عينيك إلى الحياة الدنيا زهرة أي في حال زهرتها}}[2]. ومنها أيضا: {{أي جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا}}[3]. ومن هذه التأويلات كذلك: {{... جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة}}[4]. وكل هذه التقديرات جمعها أحد المفسرين في مدلول الزينة والبهجة فقال: {{... أي زينتها وبهجتها}}[5] وأما من ربطها بالتعبير السياقي مباشرة فقد ارتأى في ذلك صيغة المبالغة كأن يقال: {{أو على جعلهم نفس الزهرة مبالغة}}[6]. ولكن من فسر الزهرة على أساس أنها نور الزهرة والنبات ربطها بالمتاع الذي مُتّع به هؤلاء الناس: {{وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ما تذبل}}. وعلى أي حال فلفظة (الزهرة) استعملت في هذه الآية استعمالا غير حقيقي، سواء ربطت بالحياة الدنيا، أم ربطت بالمخاطبين في الآية أم رُبطت بالمتاع. وهذا يرجح تغليب الجانب التصويري في هذا المثال بصفة خاصة والتشبيهات المتميزة بالفردية المطلقة من الصورة الرابعة بصفة عامة التي ضمت ثنائية التصوير والتقرير.

---

(1) الكشاف -المصدر السابق- م4 -ص208-209.
(2) التحرير والتنوير - المصدر السابق -ج14- ص315.
(3) الجامع لأحكام القرآن -المصدر السابق- م6 -ج16 -ص262.
(4) المصدر نفسه - م6 -ج16 -ص261.
(5) روح المعاني -المصدر السابق- م6 -ج16 -ص283.
(6) المصدر نفسه - م6 -ج16 -ص284.

وتتباعد هذه الثنائية كل ما ابتعدت دلالات الطرفين المتقابلين في تأدية المعنى بالرغم من استمرارية الأسلوب التقريري، الذي ينم عن المبالغة في الربط بين شطري الصورة الواحدة، ويمكننا أن نستشف هذا من المثال الآتي من قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم]؛ ففي جملة ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ تكاد تجمع الآراء والتفاسير على أن لفظة (الهواء) استعملت استعمالا تشبيهيا، لأن الأفئدة ليست هواء وإن وجد من يلتمس في الآية إضماراً على أن تفسيرها يكون على غير التشبيه: {{...أي ذات هواء وخلاء}}[1]. وهذا الرأي قليل، ولكن الاختلاف يكمن في تفسير اللفظة نفسها؛ فمنهم من يرى أنها تعني: {{... الخلاء الذي لم تشغله الأجزام}}[2] ومنه من يرى: {{ أن الهواء ليس بمعنى الخلاء بل بالمعنى الذي يهب على الذهن من غير أعمال مروحة للفكر}}[3] ومهما يكن من اختلاف في مدلول (الهواء) فإن الجامع بين الطرفين (الأفئدة والهواء) يبقى دوما الخلو والفراغ في كل منها.

وكلما ازداد التباعد الدلالي بين الطرفين كلما كان التصوير هو الغالب على الصورة التشبيهية وبخاصة إذا جاء في السياق ما يؤكد ذلك، كما هو الشأن في مثل قوله تعالى في وصف يوم قيام الساعة: ﴿...وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ ..﴿٢﴾﴾ [الحج].

يصف الجزء الأول من الآية حالة من حالات الناس يوم تقوم الساعة، ويتمثل هذا الصنف في صورة مرئية نرى فيها الناس سكارى يترنحون يمينا وشمالا: {{يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة في خطواتهم المترنحة}}[4]. ولكن هل هؤلاء الناس سكارى فعلا بالمعنى الذي تعارف عليه الناس بواسطة الشراب؟ فالجواب دل عليه الموقف الذي تناولته الآية، وهو موقف البعث، ذلك الموقف الرهيب الذي تشخص فيه الأبصار وتضطرب فيه النفوس وتتحير فيه العقول، والذي لا يعقل أن يكون موقفا للأكل والشرب. وأما الدليل الثاني فهو الجزء الثاني من الآية والمتمثل في عبارة ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ والذي يؤيد

(1) في ظلال القرآن –المصدر السابق- م4 –ج16 –ص2357.
(2) الجامع لأحكام القرآن –المصدر السابق- م2 –ج3 –ص124.
(3) الكشاف –المصدر السابق- م2 –ج13 –ص124.
(4) روح المعاني –المصدر السابق- م5 –ج13 –ص247.

أن السكر ليس حقيقيا، بل هو معنوي قول أحدهم إذ: {{ تراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب }}[1]. ويستند هذا الرأي إلى القرينة التي تميزت بها هذه الصورة التشبيهية المطلقة المتمثلة في التصريح بعدم السكر في عبارة ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ التي يراها البعض: {{قرينة من قصد التشبيه}}[2]. ولبروز الجانب التصويري أكثر في هذا المثال حمل بعض المفسرين إلى تخريجه مخرج التشبيه[3] وجوّز أحدهم أن يكون الكلام على الحقيقة ولا تأكيد فيها[4]، وهذا احتمال ضعّفت منه القرينتان السابقتان كما سبق أن بينا.

وتنعدم هذه الثنائية تماما عندما تنعدم أوجه احتمالات التشابه التقريري الذي قد تؤديه دلالات ألفاظ الطرفين المتقابلين، وخاصة إذا كانت الأمثلة القرآنية قد سيقت لتبيين المظاهر الحالية للأشياء، أي لتربط بين شيء وآخر في حالة من حالات الالتقاء. وفي هذه الأمثلة ينعدم الجانب التقريري، ويبرز الجانب التصويري المصحوب بالحيوية المجسّدة للعلاقة الجامعة بين طرفي الصورة التشبيهية الواحدة. وفي هذه الأمثلة تبرز كذلك الفردية المطلقة بلفظتين بدل لفظة واحدة، وبتكرار الفعل الدال على الحدث مرتين مع اختلاف الفاعل لهذا الحدث. وتمثيلا لهذا الصنف نأخذ قوله تعالى في وصف حالة الجبال يوم قيام الساعة: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ ..﴿٨٨﴾﴾ [النمل] لم تختلف آراء المفسرين التي بين أيدينا حول طبيعة ألفاظ هذه الصورة التشبيهية، وذلك للأسباب التي ذكرناها آنفا، ولكن أوجه الاختلاف بينهم دارت حول طبيعة العلاقة التي تربط بين طرفي هذه الصورة التشبيهية، ويعود ذلك في نظرنا إلى الشمولية التي تميز بها الطرف الثاني من الصورة، لأن مرور السحاب مختلف فيه؛ فمنهم من يرى أنه يسير على مهل مثل ما جاء في بيت الأعشى:

كأن مشيتها لبيت جارتها ... مر السحاب لا ريث ولا عجل[5]

---

(1) في ظلال القرآن -المصدر السابق- م2 -ج18 -ص 2406.
(2) الكشاف -المصدر السابق- م3-ص4-5.
(3) التحرير والتنوير - المصدر السابق -ج17- ص191.
(4) مجمع البيان -المصدر السابق-م4 -ج17 -ص17-+ في ظلال القرآن -المصدر السابق- م4 -ج17- ص2408.
(5) الديوان -الأعشى الأكبر -شرح محمد حسين -المكتب الشرقي للنشر والتوزيع بيروت -1968- ص219.

ومنهم من يرى أنه يسير سيرا سريعا، وهو الغالب:{{... والمشهور في وجه الشبه السرعة}}[1]. ومنهم من يلتمس – إلى جانب هذه السرعة – الوضعية التي يكون عليها السحاب في تفتت أجزائه وانتفاشها: {{وجعلوا اختيار التشبيه بمرور السحاب مقصودا منه إدماج تشبيه حال الجبال حين ذلك المرور بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها}}[2].

إن هذا الاختلاف في تحديد طبيعة وجه الشبه يزيد الصورة التشبيهية قوة وجمالا؛ لأن الصورة إذا حُددت وعُينت وأصبحت مألوفة لاجتهاد فيها ملتها الأنفس، وأصبحت بمرور الزمن ميدانا خصبا لإجالة الفكر في كشف مكنوناتها وخباياها الجمالية. وتبرز هذه الميزة في المثال الموالي من قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الواقعة]. تبدو الصورة التشبيهية واضحة لاختلاف بين العلماء والمفسرين حول تحديد طرفيها، ولكن موطن الخلاف هذه المرة يكمن في تعيين مدلول الجزء الثاني منها، والذي تمثله لفظة ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ لأن الشرب فعل واحد وإن اختلفت وسيلته وطريقته، والفاعل في الطرف الأول من الصورة معروف وهو: أهل النار الذين يأكلون من شجرة الزقوم، ثم يشربون من الحميم، ولكن الفاعل في الطرف الثاني غير محدد بشيء معين، لأن لفظة ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ حملت معنيين الأول:{{وهو الجمل الذي أصابه الهيام بضم الميم وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب حتى تموت، أو تسقم سقما شديدا، ويقال إبل هيماء وناقة هيماء، كما يقال جمل أهيم قال الشاعر:

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضي عليها هُيامها}}[3]

أما المعنى الثاني فيتمثل في:{{الأرض الرملية التي لا تروى بالماء}}[4]؛ وكلا هذين المعنيين يؤديان غرضا واحدا وهو (عدم الارتواء)، ولكن المعنى الأول يمتاز عن المعنى الثاني بكونه يلتقي مع الطرف الأول في الطبيعة الحيوانية، وكذلك يلتقي معه في وسيلة الشرب وهي (الفم) كما يمكن أن يلتقي معه في شكل أي في طريقة الشرب؛ فالإبل تشرب بمد رقبتها إلى الماء دون أن تستعمل أي حاسة أخرى من الحواس، سوى عملية

(1) روح المعاني –المصدر السابق– م7 –ج20– ص34.
(2) التحرير والتنوير – المصدر السابق – ج20– ص.47
(3) روح المعاني –المصدر السابق– م9–ج27– ص146.
(4) مجمع البيان –المصدر السابق– م6 – ج27 – ص124.

الامتصاص. وقد يحدث مثل هذا العمل من الإنسان، ولكنه غير محبب، لأنه مخالف لطبيعة التي تفرض عليه استخدام يديه للشرب، كما يمكن أن يلتقي معه في خاصية أخرى وهي (الألم) لأن شراب أهل النار يتمثل في الحميم الشديد الحرارة الذي يقطع أمعاءهم، ورغم هذا فهم يشربونه بنهم. فكذلك الإبل المريضة بداء (الهُيام) الذي يجعلها تشرب: {{حتى تموت أو تسقم سقما شديدا}}[1]. وبهذه القرائن يمكننا أن نرسم مشهدين متقابلين أحدهما: لقطيع من الإبل وهي تشرب من دون أن تتوقف، والثانية: لجماعة من البشر يقومون بنفس العملية؛ عملية الشرب، فالأول بارد والثاني يغلي من شدة الحرارة. وتعدد أوجه الالتقاء بين المشبهين كما سبق أن بينا يعطي لهذه الصورة التشبيهية استمرارية التأثير الفني الجمالي في النفس.

هذا ما لاحظناه من خلال اختلاف المفسرين لطبيعة النماذج التي مرت معنا، ويبقى هذا الاختلاف دوما ساري المفعول في جل نماذج النوع المفرد المطلق، وهو ميزة من مميزات الصورة الرابعة بوجه عام وسنرى ذلك عندما نتناول باقي الأنواع الأخرى ابتداء من النوع الموالي:

2- المقيد: يأتي هذا النوع في الدرجة الثانية بالنسبة للكثرة والقلة - بعد النوع المفرد المطلق- كما أن نفس الأساليب التي وجدناها في النوع المطلق نجدها في المقيد؛ ومن أبرز هذه الأساليب أسلوب (الجعل) الذي يدل على وقوع تغيير في مادة الشيء من حالة إلى أخرى، ويكون بصيغة الماضي ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ و﴿جَعَلْنَا﴾، ويشترك معه في هذه الصيغة أسلوب الكينونة الذي يدل على معنيين؛ معنى التقرير، ومعنى التغيير، فالأول: يقر بالحياة التي كانت عليها طبيعة الشيء في مثل قوله تعالى: ﴿...كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن]. وأما الثاني فيُبيِّن التغيير الذي سيطرأ على الأشياء في المستقبل بصيغة الماضي من الفعل في مثل قوله تعالى: ﴿... وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل].

وإلى جانب هذين الأسلوبين (الجعل والكينونة) هناك أساليب أخرى متنوعة ستطرق إليها في حينها. وقد ساهم هذا النوع من الأساليب في استمرارية الثنائية ((التقريرية والتصويرية)) في الصورة التشبيهية المفردة المقيدة إلى جانب طبيعة الطرفين المشبهين -فكلما

(1) روح المعاني - المصدر السابق- م9- ج27-ص146.

كان الطرفان المتقابلان متقاربين في طبيعتهما، كلما كوَّنت هذه الثنائية إشكالية في تفسير مدلول الصورة التشبيهية الواحدة؛ فمثلا عندما تتقابل (الجبال) مع (الكثيب)- الذي هو الرمل - بأسلوب الكينونة (كانت) الدال على التصيير:{{فلا مانع من أن تكون رملا حقيقية}}[1] لأنه من الطبيعي أن:{{تصير حجارة الجبال دقيقا}}[2]. ولكن إذا أخذنا هذه الصورة من الجانب الإيضاحي لوجدناها تنحو نحو التشبيه شكلا ومضمونا؛ أي أنها صيغت بطريقة الصورة الرابعة، فربطت بين طبيعتين معروفتين لدينا هما: طبيعة الجبال الصلبة، وطبيعة الرمال الرخوة المتفرقة: {{والمعنى أن الجبال تنقلع من أصولها فتصير بعد صلابتها كالرمل السائل}}[3].

وكلما اختلفت طبيعة الطرفين المتقابلين، كلما ازداد الجانب التصويري أكثر في الصورة حتى وإن ضم التعبير السابق للصورة أسلوبي (الجعل والكينونة)، ويمكن أن نلحظ هذا في مقابلة أعمال الكافرين والمنافقين يوم القيامة [[بالهباء المنثور]] [الفرقان آية 23] عن طريق أسلوب الجعل (فجعلناه) الآية. وهذا واضح للعيان؛ لأن (الأعمال) أشياء مختلفة، بينما (الهباء) شيء مادي واحد ومعلوم. وبهذا يكون الجانب التصويري قد فرض نفسه وقطع طريق الاختلاف حول تأويل المعنى المراد من إقامة المقابلة في هذه الآية. وهذا ما يمكن ملاحظته أيضا من خلال التصوير القرآني في ربطه (الأكواب بالقوارير الفضية) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان] بواسطة فعل الكينونة ﴿كَانَتْ﴾، الذي أفاد التصوير دون التقرير؛ فالأكواب لا تصير في طبيعتها قواريراً وإنما:{{تكون شبيهة بالقوارير في صفاء اللون والرقة حتى كأنها تشف عما فيها}}[4].

بهذه الكيفية نستطيع تتبع الثنائية التقريرية والتصويرية في الأمثلة المتبقية كما تتبعناها في صور الإفراد المطلق والذي يلفت انتباهنا الآن أكثر -في هذه النوعية- القيد اللفظي الذي يأتي عقب كل صورة تشبيهية؛ فمن خلال النماذج التي في حوزتنا تبين لنا أن القيد

---

(1) روح المعاني -المصدر السابق- م10- ج28- ص135.
(2) التحرير والتنوير - المصدر السابق - ج28- ص.277
(3) مجمع البيان -المصدر السابق- م6 - ج29 -ص58.
(4) التحرير والتنوير - المصدر السابق -ج28- ص392.

الغالب في معظم الصور التشبيهية يكون عبارة عن صفة من الصفات التي تلازم الطرف الثاني ويعرف بها، وهذه الصفة عادة ما تأتي على صيغة صرفية واحدة وهي صيغة المفعول التي تقوم بدور الموضح لوضعية المشبه به التي هو عليها، وتتحكم في وضعية المشبه التي سيكون عليها؛ فمثلا: لو أخذنا المثال الذي يصور حالة الجبال يوم قيام الساعة: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾[الواقعة]. لوجدنا أن لفظة ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ تمثل القيد الذي يفرض على (الهباء) الشكل الذي يجب أن يكون عليه، فتفتت الجبال حتى تصبح شبيهة بذرات الهباء شكل أساسي في الصورة، وللانبثاث أو التفرق وضعية جزئية تشارك في رسم الصورة وتفرض عليها كيفية خاصة، لأنه لو افترضنا حذف هذه الصفة ﴿مُّنۢبَثًّا﴾، وتركنا الصورة مفردة مطلقة ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً﴾ لاختلف تفسيرنا الآن للصورة عن التفسير السابق، لأن لفظة (الهباء) مفردة مطلقة تؤدي معنى عاما يحتمل عدة علاقات، يمكن تخريجها للربط بين الطرفين المتقابلين (الجبال والهباء)، إذاً فلفظة ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ أفادت في تعريف الصورة شكلا وفي تخصيصها معنى. وهذا الأمر ينطبق على الصفات التي تأتي على هذا المنوال مثل (منثورا) التي قيدت لفظة (الهباء) في مقابلتها لنتيجة أعمال الكفار يوم القيامة، وكذلك ينطبق هذا الحال على صفة ﴿مَّهِيلًا﴾ في تقييدها للفظة (الكثيب) المقابلة لحالة (الجبال) يوم قيام الساعة.

تشترك هذه القيود السابقة في إضفاء الجانب الشكلي على الصورة التشبيهية الذي يترتب بعد سكون الحركة، ولكن تنفرد صفة ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ بإمكانية استمرارية حركة (الهباء) المتطاير، دلت على ذلك طبيعته التي يعرف بها، وهي عدم استقراره في الهواء، وكذا الصيغة الصرفية للصفة نفسها ﴿مُّنۢبَثًّا﴾، التي يمكن أن تحمل المعنيين معا (استمرارية الحركة وانتهائها) لأنها تعني (منتشرا)، والانتشار قد يكون تم وانتهى، وقد يكون مازال مستمرا. والأرجح في هذه الصورة التشبيهية أن تكون الحركة هي الغالبة على مدلول ألفاظها. وهذا ما ينطبق أيضا على لفظة (منيرا) القيد الذي يربط الصورة التشبيهية من قوله تعالى في وصف نبيه الكريم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب]. وهذا يدل على

أن السراج المذكور لا يضيء من ذاته بل يستقبل الضوء ويعكسه كما هو الحال للقمر العاكس لنور الشمس[1]، وتقييد المشبه به بهذه الكيفية يعني أن المشبه مقيد هو الآخر في نفس الصفة، صفة (الإنارة). ومن هنا يكون تفسير هذه الصورة في مجمل القول:{{أنت يا محمد كالسراج الوضاء في الهداية والإرشاد}}[2]. وفي ضوء هذا كله يمكن الوصول إلى نتيجة عامة أشارت إليها الإنارة وهي:{{...أن وصفه ﷺ بالسراج المنير يفيد معنيين على تخصيص القرآن؛ معنى الضياء والنور كما بينه تعالى، وبأنه يبلغ رسالة هدى وأن هذه الرسالة منزلة عليه}}[3].

وبهذا التحليل يتبين لنا الدور الأساسي الذي أدته وتؤديه هذه القيود في رسم الإطار الشكلي للصورة التشبيهية؛ وهناك نماذج أخرى تحتوي على صفات تساهم في تقييد الصورة تقييدا معنويا يختلف عن التقييد الشكلي في النماذج السابقة؛ فمثلا إذا تناولنا قوله تعالى: ﴿...وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد]، وسلمنا بأن الكلام في هذه الآية لا يؤخذ على سبيل الحقيقة، كما عن لبعض المفسرين تخريجه[4]، بل يؤخذ على سبيل التشبيه، لأن الآية لا تتكلم عن عنصرين مختلفين ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ وهي شيء معنوي، و(المتاع) الذي هو شيء مادي، وبالتالي يكون تفسير الآية:{{.. معناه والعمل للحياة الدنيا متاع الغرور وإنه كهذه الأشياء التي مثل بها في الزوال والفناء}}[5]. وبهذا تكون لفظة (الغرور) قيد معنوي لكل من (المتاع والحياة الدنيا)، وهذا يعني أن هناك (متاعا) لا يتصف بهذه الصفة، وهذا ما يتضح في قول أحدهم:{{... الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة}}[6]. وهذا يبين لنا أن المقصود من المتاع:{{المتعة: الزاد القليل}}[7] الذي لا يبلغ صاحبه إلى مبتغاة. وهنا

(1) يلتمس تفصيل هذا المعنى في كتاب التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن - حنفي أحمد -دار المعارف مصر -ط3- ص153.

(2) صفوة التفاسير -المصدر السابق- م2 -ص553.

(3) التفسير العلمي للآيات الكونية-المصدر السابق- ص152.

(4) «أي هي متاع فان غار لمن ركن إليه» تفسير ابن كثير -المصدر السابق -م4 -ص313.

(5) مجمع البيان -المصدر السابق-م6 -ج27 -ص153.

(6) روح المعاني -المصدر السابق- م9-ج27-ص185

(7) لسان العرب - ابن منظور - المصدر السابق - مادة (متع) -ص332.

تبرز صفة الغرور في تجسيد علاقة الزوال والفناء التي تجمع بين طرفي هذه الصورة التشبيهية. وينطبق هذا التحليل على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ ..(٣٢)﴾ [الأنبياء]. يدل فعل (الجعل) كما مر معنا على معنيين: الأول: (الخلق)، والثاني: (التصيير والتحويل). وإذا اعتمدنا الأول يكن تفسير الآية على الحقيقة، أي أن الله تعالى: {{بين خلقها على تلك الصفة...}} [1]. وأما إذا اعتمدنا المعنى الثاني فيكون تفسير الآية: {{أي رفعنا السماء فوق الخلق كالسقف...}} [2]. وهذا يعني أن السماء شكلت بعد خلقها على هيئة سقف، ولكن هذا السقف تختلف طبيعته عن طبيعة السقف الذي نعرفه، وكذلك تختلف هيأته ومساحته عن السقف المعتاد، وكذلك أن هذا الأخير يرفع فوق أركان وأعمدة نراها، بينما السماء رفعت بغير عمد تدركها الأبصار، كما أن مساحة السقف العادي مهما امتدت فإنها تبقى محددة بمساحة معينة، بينما مساحة السماء لا ندرك حدودها ولا نراها، ولكن هناك نقاطا يمكن أن تجتمع بين السماء والسقف من بينها: الشكل المسطح، وكذا الوقاية والحفظ، وما يصحب ذلك من أمن وطمأنينة وغيرها من عوامل الاستقرار البدني والنفسي وهذا ما يمكن أن نستخلصه من لفظة (السقف) مطلقة في مقابلتها للفظة ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، ولكن إذا أضفنا لها لفظة ﴿مَّحْفُوظًا﴾على اختلاف معانيها لدى المفسرين[3]، فإنها تمثل قيدا معنويا يحدد إحدى وظائف السقف التي جعلت على منوالها وظيفة السماء.

وبهذا القدر من الأمثلة التوضيحية يتبين لنا أن القيد في الصورة المفردة يؤدي دورا بارزا في تحديد معالم الصورة التشبيهية، والتدقيق في جوانبها الأساسية التي تقوم عليها. وهذا بدوره ساهم في تقوية جمال وبلاغة الصورة التشبيهية.

وبعد هاتين الخاصيتين (الإطلاق) و(التقييد) ننتقل إلى الخاصية الثالثة التي تميز أيضا النوعية المفردة من الصورة الرابعة، وهي التعددية في الأطراف المفردة.

---

(1) الكشاف – المصدر السابق- م2- ج2 –ص571.

(2) مجمع البيان – المصدر السابق–م4 –ج14 –ص23

(3) ((... وذكر في وجهه أن المراد حفظها ليس كحفظ دور الأرض فإن السارق ربما تسلق من سقوفها بخلاف هذه، وقيل: إنه للدلالة عل حفظها عمن تحتها...)) روح المعاني –المصدر السابق- م6- ج17 –ص39.

3- المتعدد: يكون انطلاقنا في معالجة هذه الخاصية من خلال ما تجمع لدينا من نماذج، وعليها يحق لنا القول بأنها قليلة تأتي في الدرجة الثالثة بعد حالتي(الإطلاق والتقييد). وبناءً على هذه القلة نقول: إنها تناولت موضوعين على العموم هما: وصف الحياة الدنيا، ووصف الفريق الضال من المنافقين والكفرة. وإلى جانب هذا هناك ميزات أخرى أهمها: انعدام الثنائية التي وجدناها في الخاصيتين السابقتين (التقريرية والتصويرية)، وكذلك غلبة الجانب التصويري على النماذج التي بين أيدينا، ويبرز هذا أكثر في النماذج التي تتناول وصف الطرف الضال بأنواع الحالات المرضية الفسيولوجية من (صمم وبكم وعمى). ويعود هذا في نظرنا إلى السياق العام للآيات القرآنية، لأن الكلام في هذه الآيات يدور حول عدم استغلال هؤلاء الجاحدين لحواسهم الطبيعية السليمة، استغلالاً فطرياً؛ وهذا ما ذهب إليه المفسرون في مثل قول أحدهم: {{إنهم صم لا يسمعون بكم لا يتكلمون، غارقون في الظلمات لا يبصرون إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجسماني المادي، فإن لهم عيونا وآذانا، وأفواها...، ولكن إدراكهم معطل فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل!...}}[1].

وإذا كان السياق في هذه النماذج هو الذي ميّزها بطابع التصوير، وأبعدها عن جانب التقرير، فإن طبيعة الطرفين في نماذج أخرى هي التي أوضحت حتمية الجانب التصويري فيها. ويمكننا ملاحظة ذلك في النماذج التي يكون طرفها الأول دوما (الحياة الدنيا) وطرفها الثاني (اللعب واللهو والزينة)؛ لأن الطرف الأول يغلب عليه الطابع المعنوي، بينما الطرف الثاني يخضع لمقاييس المادة من حس ومشاهدة وغيرها من أساليب المعاينة.

ومن خلال ما تقدم شرحه من نماذج تتضح لنا أحادية الطرف الأول وتعددية الطرف الثاني، وهذا التعدد في الإفراد يكون منفصلا لفظا ومتحدا معنى أحيانا، ومنفصلا ومعنى أحيانا أخرى؛ فمن الأول نأخذ على سبيل التمثيل لفظتي (اللعب واللهو) المترادفتين في وصف (الحياة الدنيا)؛ إذ تمثل كل لفظة منها جزءاً مستقلا، يمكن مقابلته بالطرف الأول المشترك وهو (الحياة الدنيا)، وذلك من الناحية الشكلية. ولكن من الناحية المعنوية فإن

---

(1) في ظلال القرآن -المصدر السابق- م2 -ج7 -ص1080-1081.

هاتين اللفظتين تتحدان في المدلول اللغوي بحسب ما جاء في المعاجم اللغوية:{{واللهو: اللعب، ويقال لهوت بالشيء ألهو به لهوا وتلهيت به إذا لعبت به وتشاغلت وغفلت به عن غيره}}[1] وإذا سلمنا بهذا المعنى اللغوي فإن وقوع اللفظة الثانية يكون بمثابة زيادة في التأكيد. ومن هنا تكون التعددية الفردية بهذا الشكل قد أفادت في توضيح الصورة وتجليتها للأبصار أكثر. وإذا لم نسلم باتحاد اللفظتين في المعنى، والتمسنا المعنى الجزئي لكل لفظة من خلال المعاني الجزئية المتناثرة في كتب اللغة. إذ تشير هذه الأخيرة إلى أن اللعب يعني عل العموم:{{ضد الجد}}[2]. يصح بأن:{{يقال لكل من عمل عملا لا يجدي عليه نفعا: إنما أنت لاعب}}[3]؛ وعلى هذا الأساس فإن هذا المعنى يختلف عن المعنى الجزئي للفظة (اللهو) الذي يعني الانشغال بالشيء عن شيء آخر سواء كان هذا الشيء مفيدا أو غير مفيد. وقد ورد هذا في القرآن الكريم في أكثر من مرة، وقد استدل به صاحب اللسان عن ابن عرفة في قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ...﴿٣﴾﴾ [الأنبياء]. {{أي متشاغلة عما يدعون إليه، وهذا من لهى عن الشيء إذا تشاغل بغيره يلهي، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴿١٠﴾﴾ [عبس] أي تتشاغل، والنبي ﷺ لا يلهو، لأنه ﷺ قال: ما أنا من داد ولا الداد مني...}}[4]. ويفيدنا هذا التحليل في أن ذكر لفظة (اللهو) بعد (اللعب) تعني جزءاً من الحياة مستقلا عن اللعب استقلالا جزئيا ويؤيدنا في ذلك صاحب التحرير في تفسيره لهاتين اللفظتين:{{واللهو: ما يلهو به الناس أي يشتغلون به عن الأمور المقدرة أو يعمرون به أوقاتهم الخالية عن الأعمال، واللعب ما يقصد به الهزل والانبساط}}[5].

ومن هذا المنطلق يكون التعدد قد أفاد في تحديد معالم الصورة التشبيهية وحصرها في مجال معين، وهذا ما سنلمسه في أساليب الحصر التي وردت في بداية ووسط كل صورة تشبيهية، ونأخذ على سبيل المثال ثلاثة نماذج تجري في مسلك واحد وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(1) لسان العرب- المصدر السابق- مادة (لها)- ص259.

(2) معجم متن اللغة - أحمد رضا- منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت لبنان-1380- 1960 -مادة (لعب)- ص183.

(3) اللسان مادة (لعب) ص739.

(4) اللسان -المصدر السابق-مادة (لها) ص259.

(5) التحرير والتنوير - المصدر السابق- م8-ج12- ص31.

هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ...(٦٤)﴾ [العنكبوت] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ...(٣٦)﴾ [محمد]، وقوله عز وجل: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ...(٢٠)﴾ [الحديد].

تعالج هذه النماذج موضوعا واحدا وهو ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، وبأسلوب واحد هو أسلوب الحصر المتمثل في أداة الاستثناء (إلا) وأداة التوكيد (إن)، ورغم هذه الوحدة الموضوعية والأسلوبية فإن وضوح الصورة يختلف باختلاف موقع الأداة، وطريقة التعبير عنها؛ فمثلا نجد في المثال الأول أن الأداة توسطت طرفي الصورة (الحياة الدنيا واللهو واللعب)، وهذا التوسط سهل مهمة تقدير الأداة، فيمكننا تأويلها بقولنا:{{... أي كاللهو واللعب}}[1]. إضافة إلى هذا طبيعة التعبير الذي تصدر الآية (وما هذه) الذي ينم عن:{{ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها}}[2] اجتماع هاتين الصفتين (التقدير والتحقير) جعل الجانب التشبيهي أبين وأوضح. وهذا ما نلمسه في كلام المفسرين لهذه الآية القرآنية. بينما الأمر يختلف بالنسبة للآية الثانية والثالثة؛ ففي الثانية نجد أن الأداة تصدرت الكلام وأخبرت عن الحياة الدنيا، وحصرت ذلك في شيئين اثنين هما (اللهو واللعب) ووقوعها في صدارة الصورة التشبيهية جعل كلام المفسرين عنها يتغير قليلا عما قيل في سابقاتها؛ فمنهم من اكتفى بذكر مقتضيات أسلوب الحصر، وأخذ الكلام على ظاهره كقول أحدهم:{{أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل}}[3]. ومنهم من أخرجها مخرج التشبيه على اقتناع بأن المعنى واحد وإن تغير موقع الأداة، ويبدو ذلك في قول أحدهم:{{شُبِّهت أحوال الدنيا باللعب واللهو في عدم ترتب الفائدة عليها لأنها فانية منقضية والآخرة هي دار القرار}}[4]. ويختلف الحال أكثر في الآية الثالثة عن الأولى والثانية، إذ نجد أن الأداة سبقت بفعل ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ ﴾الذي زاد في قوة الإخبار المؤكد بالأداة (إن)، وهذا التعبير لا يفتح مجالا لتأويل مباشر لأداة التشبيه، لأن التعددية الفردية في الطرف الثاني من الصورة التشبيهية لا تسمح ظاهريا بالتماس أداة للتشبيه، بالرغم من كونها معطوفة على لفظتي

(1) صفوة التفاسير –المصدر السابق– م2 –ص461.
(2) الكشاف –المصدر السابق– م2– ج4 –ص253.
(3) تفسير ابن كثير –المصدر السابق– م4 –ج4 –ص181.
(4) التحرير والتنوير – المصدر السابق–ج26– ص136.

(اللهو واللعب) حيث يمكن تأويل الأداة في كل من هاتين اللفظتين (كاللهو وكاللعب)، ولعل هذا ما جعل بعض المفسرين يلتمسون التقرير الواقعي من وراء هذا التعبير السياقي القرآني ويتضح هذا الموقف في قول أحدهم: {{...هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو منها من جد حافل واهتمام شاغل}}[1]، وجعل البعض الآخر يقسم الطرف الثاني من الصورة إلى قسمين الأول: يتكون من (اللعب واللهو والزينة) ويتمثل هذا القسم الجانب الذي يمكن أن تبرز فيه أداة التشبيه، ويمكن مقابلة كل طرف على حدة مع ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ في جامع بينهما وهو (الزوال والفناء). بينما يحتوي القسم الثاني على باقي الأطراف التي لا يسمح التعبير المباشر فيها بوضع الأداة موضع التأويل، ولكن يمكن جمعها في معنى واحد يقابل ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ في نفس العلاقة التشبيهية (الزوال والفناء)، وهذا ما نستخلصه من قول القائل: {{...أي بمنزلة اللهو واللعب... ﴿وَزِينَةٌ﴾ تتزينون بها في الدنيا وقيل أراد بذلك أنها تتحلى في أعين أهلها ثم تتلاشى ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي يفاخر الرجل بها قرينه وجاره، عن ابن عباس ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ قال: يجمع ما لا يحل له تكاثرا به ويتطاول على أولياء الله بماله وولده وخدمه، والمعنى أنه يفني عمره في هذه الأشياء...}}[2].

ويتضح من خلال ما تقدم أن مدلول الصورة التشبيهية يتغير بحسب التغير الجزئي للأساليب القرآنية في كل صورة بالرغم من تكرار الأطراف المشبهة، سواء كانت أحادية أو متعددة.

لقد دار جل حديثنا هذا حول الأطراف المتعددة المنفصلة لفظا والمتحدة في المعنى الجزئي؛ حسب تخريج كل صورة. وإذا انتقلنا إلى الصنف الثاني من الأطراف المتعددة المنفصلة لفظا ومعنى، فإننا نجده يضم ألفاظ (الصمم والبكم والعمى)، والتي تقابل دوما الفريق الضال الذي يمثل الطرف المعنوي في الصورة، بينما تمثل الصفات المرضية الطرف الحسي فيها. وهذه الصفات كما هو معلوم تنفصل عن بعضها البعض بحكم التركيب الفسيولوجي لها، ولكن تبقى إمكانية جمع هذه الصفات المرضية في شخص واحد فيكون الشخص (أصم وأبكم وأعمى). ولكن هذا الجمع لا يغير من التعددية في شيء فيبقى

---

(1) في ظلال القرآن -المصدر السابق- م6-ج2 -ص348.

(2) مجمع البيان -المصدر السابق-م6 -ج27 -ص152.

الانفصال اللفظي والمعنوي متواجدا، لأن جمع الصفات المرضية في شخص واحد يزيد التعددية قوة وجمالا بيانيا، لأنها تعبر عن اكتمال مواطن العجز الكلي في شخص بعينه. إن الانفصال اللفظي والمعنوي بين عناصر الطرف الثاني يسهل مهمة مقابلة كل عنصر من العناصر المتعددة بنظره في الطرف الأول؛ فيمكن أن يقال (هم صم وهم بكم وهم عمي). وبهذه الكيفية يكون التعدد قد ساهم في رسم ثلاث صور تشبيهية، يمكن فصلها عن بعضها البعض، الأمر الذي يجعل الطرف الأول المفرد لفظا متعددا معنى. وبهذا نتأكد من حتمية الجانب التصويري في هذه النماذج واستبعاد الجانب التقريري فيها.

غير أن هذا التصوير يشكل ثنائية أخرى تتمثل في اجتماع الاستعارة مع التشبيه في صورة واحدة، كما سنرى ذلك من خلال هذين المثالين؛ الأول: يتمثل في قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة]. يأتي هذا التعدد في سياق الآية بعد صورة تشبيهية واضحة الأطراف تتمثل في المشبه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأداة التشبيه ﴿كَمَثَلِ﴾ والمشبه به ﴿ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾. وإذا كان هذا التعدد منفصلا دون أن نربطه بأي طرف آخر - على أن يكون هذا الطرف محذوفا- يحق لنا أن نجري هذا التعدد مجرى الاستعارة، والمانع الذي يمنع من أن تكون هذه الصفات قد وردت في إطار معناها الحقيقي في جملة ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأن العقل شيء والصفات المذكورة شيء آخر. ولكن إذا ربطنا هذا التعدد بالطرف الأول من الصورة التشبيهية الأولى، وهو ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على أساس أن الذم موجه إليهم حق لنا أن نأخذ هذا التعدد مأخذ الصورة التشبيهية متباعدة الطرفين، وهذا الذي ذهب إليه بعض المفسرين في مثل قول أحدهم: {{...ثم شبه تعالى الكافرين بأنهم صم بكم عمي}}[1].

وتبرز الثنائية أكثر في المثال المتمثل في قوله تعالى: ﴿...فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة]. تجتمع الاستعارة والتشبيه في هذه الآية حسب تأويل المعنى الذي يمكن أن تحمله الأطراف المتقابلة في هذه الصورة؛ ففي حالة حمل الطرف الأول على أنه يمثل حالة نفسية تستنتج من

(1) الجامع لأحكام القرآن -المصدر السابق- م1 -ج2-ص215.

مجموع الألفاظ الأولى: وهو الطرف المعنوي المحذوف، وحمل الطرف الثاني على أنه صفات مرضية تتعلق بالذات البشرية -وهو الطرف الحسي المصرح به - تكون الصورة على طريقة الاستعارة التصريحية. ولكن إذا حملنا الطرف الأول على أنه يمثل الجانب الحسي في ذوات المنافقين على أساس تأويله بضمير الرفع المنفصل، (هم) فتكون الصورة المتعددة منفصلة (هم صم) و(هم بكم) و(هم عمي)، ففي هذه الحالة تكون الصورة التشبيهية أوضح وأبين وأولى من الصورة الاستعارية، وهذه المفاضلة يؤديها أحد المفسرين بقوله: {{غير أنهم ذكروا هنا بحثا وهو أنه لا نزاع في التقدير (هم صم) إلخ لكن ليس المستعار له حينئذ مذكورا؛ لأنه بيان أحوال مشاعر المنافقين لا ذواتهم. ففي هذه الصفات استعارة تبعية مصرحة. وإلا أن يقال تشبيه ذوات المنافقين بذوات الأشخاص؛ الصم متفرع على تشبيه حالهم بالصمم فالقصد إلى إثبات هذا الفرع أقوى وأبلغ وكأن المشابه بين الحالتين تعدت إلى الذاتيين فحُملت الآية على هذا التشبيه برعاية المبالغة}}[1].

لقد تكلمنا قبل قليل عن الجملة التي منعت أن تكون العناصر المتعددة في الطرف الثاني قد وردت في معناها الحقيقي، ونشير الآن إلى أن هذه الجملة ومثيلاتها تعد ميزة من ميزات هذا الصنف من الصور التشبيهية، ويُعد البعض منها نتائج شاملة لأطراف متعددة في مثل قوله تعالى: ﴿...فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة]، وفي قوله عز وجل: ﴿...فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة] وذلك بأن العاهات المرضية المذكورة قبل هاتين الجملتين هي التي منعت هؤلاء القوم من الرجوع إلى الطريق المستقيم، والعمل على استخدام العقل في إدراك الحق ويُعد البعض منها قيدا لما قبله لمتعدد ويشارك في رسم الصورة التشبيهية وهويتها، ونلاحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ...﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام]. إذ تمثل عبارة (في الظلمات) صفة بصرية مكملة للعجز الذي أصاب حاستي الأذن والفم: {{أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر فكيف يهتدي هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه؟!}}[2]. وهذا يقوي شلل هؤلاء ويضاعفه أكثر ويعطي قوة بلاغية لهذه الصورة التشبيهية.

---

(1) روح المعاني -المصدر السابق- م1-ج1-ص169.

(2) تفسير ابن كثير -المصدر السابق- م2-ص131-132.

من خلال ما تقدم من الصور التشبيهية يتبين لنا أن التعدد فيها اقتصر على الأطراف المشبه بها دون أن نعثر على التعدد الذي يقتصر على وجه الشبه الذي ذهب إليه علماء البلاغة في تمثيلهم للتشبيه المفرد المتعدد؛ وبهذا يكون التعدد قد اقتصر على الأطراف الثانية من النوع المفرد الذي يمثل الوجه البارز في الصورة الرابعة من صور القرآن الكريم التشبيهية، الأمر الذي لا نجده في النوع المركب من تشبيهات هذه الصورة الرابعة.

النوع الثاني: التركيب:

يقل هذا النوع في الصورة الرابعة من تشبيهات القرآن الكريم ولعل هذه القلة تعود إلى طبيعة هذه الصورة، التي تعتمد المبالغة التي تقتضي ذكر الطرفين المتقابلين، مع حذف الأداة والعلاقة التي تجمع بينهما. كما يمكن أن تعود إلى طبيعة التركيب الذي يفرض قوة التمثيل، الأمر الذي يقوي جانب الاستعارة التمثيلية في مثل هذه الصور التشبيهية. وسنرى ذلك من خلال معالجتنا لبعض النماذج التي تجمعت لدينا من القرآن الكريم في ضوء التركيبين المزجي والتقابلي بصورة عامة:

أ- التركيب المزجي والتقابلي:

وانطلاقا من النماذج التي بين أيدينا تبين أن التركيب المزجي هو الذي ميّزها وأعطاها صيغة الفردية، فردية الحالة التشبيهية؛ لأن التركيب المزجي كما سبق أن بيّنا يؤدي إلى رسم حالة موحّدة الأعضاء لا يمكن الاستغناء عن جزء واحد منها لما له من دور في نظم بنائها الكلي. ولقلة هذه النماذج نكتفي بتحليل ثلاثة منها بوجه عام:

المثال الأول: يتمثل في قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران] نلتمس صورة التشبيه في جملة ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ لأن هذا الوصف جار:{[على طريقة التشبيه بدليل التصريح بحرف التشبيه في نظيرتها في آية سورة الحديد]} [1]. إذاً فالأداة محذوفة وهي (الكاف) وكذا اللفظة المشبه بها (عرض) والتي دلت عليها نظيرتها في الطرف الأول

(1) التحرير والتنوير – المصدر السابق–ج4– ص89 (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) الحديد– آية 20.

﴿عَرۡضُهَا﴾ وبهذه المواصفات نستطيع ضم هذا المثال ضمن نماذج الصورة الرابعة. وأما إذا أردنا أن نبحث عن الجانب التركيبي في هذا المثال، فإننا نجده متمثلا في الطرف الثاني دون الأول، لأن هذا الأخير مفرد يمثله عرض الجنة ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا﴾. بينما تمثل الطرف لفظتا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ وطبيعة هذا التركيب واضحة وجلية لأن الجانب الكلي المزجي تجسده الغاية من جمع السماوات والأرض للحصول على عرض يقابل عرض الجنة. ولعل هذا الوصف المباشر هو الذي فتح بابا للثنائية (التقريرية والتصويرية)عند المحللين والمفسرين لهذه الآية القرآنية؛ فمنهم من حملها على الحقيقة القياسية:{{...تقرن السماوات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة ولا يعلم طولها إلا الله وهو قول الجمهور}}[1] ومنهم من حملها على التصوير والمبالغة:{{والمراد وصفها بالسعة والبسطة، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبْسُطِه، وخص العرض بأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة كقوله بطائنها من إستبرق...}}[2]. وهذا التحليل الثاني هو الذي نرجحه لتمييز الصورة التشبيهية، وذلك لأن الغرض من الآية -كما هو واضح- الترغيب في دخول الجنة عن طريق الحث على فعل الخيرات، وهذه الجنة واسعة وسعتها تستوعب الناس جميعاً إلا من أبى أن يدخلها. وانطلاقاً من هذا فإن سعتها كبيرة بحيث إن عرضها فقط يماثل ويضاهي عرض السموات والأرض مجتمعتين. ونحن وإن كنا نعلم عرض الأرض فإننا لا نعلم مقدار عرض السموات والأرض، ولكن ندرك أن هذا المقدار كبير لم نستطع حصره. ومن هنا يكون غرض التشبيه هو تقريب الصورة إلى الأذهان عن طريق الوصف التصويري.

وإذا كان التركيب في المثال الأول قد اقتصر على الطرف الثاني من الصورة التشبيهية فإنه في المثال الموالي شمل كلاً من الطرفين الأول والثاني.

المثال الثاني: ويتمثل في قوله تعالى:﴿...فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ..(٢٠)﴾[محمد]. ترتكز هذه الصورة التشبيهية من الناحية الشكلية على عنصرين أساسيين هما: نظرة المنافقين، ونظرة المحتضر

(1) الجامع لأحكام القرآن -المصدر السابق- م2 -ج4-ص204-205.
(2) الكشاف -المصدر السابق- م1-ج1 -ص463.

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ﴾، فحذفت الأداة لأن التقدير (كنظر)، وحذف وجه الشبه المتمثل في الشكل الظاهري لكلا الطرفين، وبهذه الكيفية ينسب هذا المثال إلى الصورة الرابعة. وإذا بحثنا عن التركيب المزجي فإننا نجده متمثلا في مشهدين أولهما: جمع من الناس يسمعون آيات الله تتكلم عن القتال، ومن بين هؤلاء فئة من المنافقين ينظرون إلى النبي ﷺ نظرة غير طبيعية. وأما المشهد الثاني: فيتمثل في شخص ممدود يعاني سكرات الموت ينظر إلى عواده نظرة طبيعية، وبهذا يكون مضمون هذه الصورة التشبيهية قد انحصر في تبيان حالتين غير طبيعيتين، حالة المنافقين، وحالة المريض الذي يحتضر، وهاتان الحالتان جسدتها ألفاظ تآلفت فيما بينها حيث أدت كل لفظة دورها في نسج معالم كل مشهد؛ فتبدأ في المشهد الأول بالتدريج من الأسفل إلى الأعلى، من المفاجأة المصحوبة بالشرط (فإن) إلى حدوث الفعل المُفاجَأة ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وليست أي سورة، بل هي سورة (محكمة):{{... مبينة غير متشابهة}}[1]. وإحكامها يشتد بتشريع عملية القتال: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾. وهذه الأفعال المُفاجِئة المشروطة تجد جوابا في أفعال أخرى تبدأ بفعل الرؤية﴿رَأَيْتَ﴾ المُحددة برؤية فئة معينة ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والمستأنفة بفعل النظر الموجه﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، وأما في المشهد الثاني: فتبدأ في النزول من الأعلى إلى الأسفل، من الكل إلى الجزء، من التركيب إلى التحليل، من المُسبّب إلى السَّبب من النظرة، نَظرةُ الإنسان غير السوي ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ﴾ –لا من المرض، ولا من أي عمل مؤثر من العوامل التي يمكن أن تزول بعد فترة من الزمن– إلى ما وراء النظرة، إلى ذكر الموت ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، إذاً فهذه الغَشية وحيدة وفريدة في قوة التأثير، لأنها حدثت من جراء سكرات الموت التي تفقد الإنسان التصرف في حواسه، ومنها حاسة البصر التي تشخص في اتجاه واحد لا تتحرك.

إذاً فقد جمع هذان المشهدان بين حدثين أحدهما قولي والآخر فعلي في حالة واحدة مشتركة بينهما، مُبيِّنة في ذلك مفعول الكلمة في النفوس ودورها الفعال في حياة الناس، إذ أنهم بمجرد أن سمعوا ذكر القتال تغيرت ملامحهم فانطبعت في نظراتهم الشاخصة التي حاكت نظرة المحتضر الذي يعاني من سكرات الموت. لقد أشارت هذه الصورة المركبة تركيبا لفظيا إلى نوع من التركيب النفسي الذي يختلج نفوس بعض الناس المطبوع على قلوبهم، فهم داخليا لا يؤمنون بما يسمعون، وخارجيا يحاولون إبداء خلاف ما يكنون،

(1) الكشاف –المصدر السابق– م3– ج4 –ص535.

وهذا التركيب النفسي ينم عن ازدواجية الشخصية، كشفته الآية الكريمة في رسمها لمعالم نظراتهم التائهة الحائرة فانزاح بذلك القناع الخارجي المزيف الذي يخفي بداخله عداء هؤلاء المنافقين نحو حقيقة التوحيد.

ومما تقدم نستنتج أن التركيب في هذه الصورة التشبيهية مزجي بالرغم من وجود العناصر المتقابلة، مثل النظر المتكرر في طرفيها، ومثل القتال الذي يقابل الموت بحكم كونه يؤدي إليها، إلا أن هذا التقابل يؤخذ جملة ويذوب داخل الإطار العام لمعنى الصورة التشبيهية.

وإذا كان التركيب المزجي في هذا المثال واضحا شكلا ومضمونا لاقتراب الطرفين المشبهين ببعضهما في اللفظ وابتعادهما معنى ودلالة، الأمر الذي جعل تخريج هذه الصورة بيّنا وسهلا غير أن هذا الأمر يصعب معنا في الجانب الشكلي في المثال الثالث والأخير.

المثال الثالث: لقد اعتدنا أن يكون الطرفان المتقابلان مذكورين ومتقابلين من بعضهما حسبما تقتضيه القواعد والأسس النظرية للتشبيه، ولكن هذا المثال يحتوي على صورة تشبيهية تختلف عما ألفناه من أنماط وأفعال تشبيهية لهذه الصورة الرابعة.

وتأتي هذه الصورة على هذا النمط، بأن يفصل بين الطرفين بكلام يجعل الطرف الثاني ينفرد بوحدة تصوُّر يمكننا الاستغناء بها كوحدة مستقلة، وخير مثال لهذا النوع قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ..﴿٢٦٦﴾﴾[البقرة]. إذا نظرنا إلى هذه الآية منفصلة عما سبقها من الآية القرآنية لما وجدنا فيها من الناحية الشكلية ما يدل على أن هناك عملية تشبيهية، لأن الطرف المشبه محذوف، وكذلك تنعدم فيها أي أداة من أدوات التشبيه، وذلك لكون الآية تخاطب المسلمين عن طريق الاستفهام المتبوع بما يكرهون. والذي يستوجب جوابا بالنفي لسبب معرفتهم لنتائج العمل الذي يجب أن لا يعملوه. وهذا النوع من الطرح يتطلب طرح تساؤل لماذا هذا السؤال المعروف جوابه؟ والجواب عن هذا التساؤل يمكن في البحث عن الطرف الغائب، والذي يحتم علينا الرجوع إلى ما قبل الآية حتى ندرك العلاقة بين هذا الطرح وبين ما هو مطروح قبله؛ وفي هذا الصدد نجد أن السياق القرآني قبل هذه الآية مباشرة

يتكلم عن النفقة في سبيل الله، وذلك في صورة تشبيهية: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة]. وإذا حاولنا أن نربط معنى هذه الآية بما بعدها لما وجدنا علاقة واضحة تجمع بينها على حد تصورنا؛ لأن النفقة في سبيل الله شيء محبب ومرغوب فيه، وهذا يحتم علينا الرجوع إلى الآية التي قبل هذه، والتي نجدها تتكلم عن الصدقة التي تُحبط بالمن والأذى، وعن النفقة غير المقبولة التي تكون رياء أمام الناس، ولا تكون خالصة لوجه الله. وهنا يمكننا. أن نجد العلاقة التي تجمع بين مجموع الأعمال التي قام بها ذلك الرجل ونتائجها السلبية وبين أفعال المتصدق ونتائج صدقته السلبية، ويتبعها في ذلك عمل المرائي ونتائج أعماله الخاسرة. وهذا النوع من الاستنتاج بين طرح وآخر عن طريق السياق يمكننا أخذه على وجه التشبيه الضمني، الذي من علاماته عند علماء البلاغة أن تكون الأداة محذوفة، والسياق هو الذي يحدد علاقة الطرفين كما يمكننا أخذه على وجه التشبيه العادي الذي تضمر فيه الأداة ووجه الشبه أي ما يسمى بالتشبيه (البليغ)، على اعتبار أن الطرف الأول -رغم بعده عن الطرف الثاني- فهو يتعلق به معنى ونتيجة.

وعلى أي وجه نأخذ هذا المثال فهو لا يخرجه عن دائرة الصورة الرابعة المركبة التي نحن بصدد الكلام عنها. وإذا بحثنا عن التركيب المزجي في هذه الصورة التشبيهية لالتمسناه في ترابط عدة صور في الطرف الواحد؛ فمثلا لو أخذنا الطرف المتمثل في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة]. لوجدنا عناصر هذه الصورة مسترسلة في طرح قضية واحدة نريد أن نؤكدها بعدة مشاهد:

المشهد الأول يتمثل في أناس يتصدقون ثم يتبعون صدقاتهم بالكلام وبالعمل الذي يبطل هذه الصدقات. وهذا المشهد يرتبط بالمشهد الثاني المتمثل في إنسان يبادر دوما إلى الإنفاق، يريد به وجه العباد؛ لأن في داخله لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وهذا المشهد بدوره يتعلق بالمشهد الذي يليه وهو طرف منه والمتمثل في الصفوان الذي وقعت عليه طبقة

من التراب ثم يسقط عليها المطر الغزير فيمسح هذا التراب من فوق الحجر، ودليل هذا الترابط المعنوي قوله تعالى: ﴿...لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ..(٢٦٤)﴾ [البقرة]، وهو نتيجة لما تقدم لأن الخيبة والخسران هي نتائج فرعية مشتركة في تلك المشاهد التي ذكرت.

وأما التركيب في الطرف الثاني فيتكون هو الأخير من مشهدين؛ الأول: منظر عام للجنة الوارفة الظلال بما فيها من أشجار وأنهار وجميع الثمرات، وبجانبها رجل قوي البنية ما زال في ربيع شبابه. وأما المشهد الثاني: فيتمثل في منظر آخر لنفس الجنة ونفس الشخص ولكن بشكل مغاير إذ يكون منظر الجنة بعد أن هبت عليها رياح الهلاك فالتهبت واحترقت عن آخرها، ويكون منظر صاحبها بعد أن هبت عليه رياح الشيخوخة والكبر وبجانبه أطفال صغار ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، لإعادة زرع هذه الجنة بعد احتراقها وهلاكها، ثم بعد هذا كله تلتحم مشاهد الطرف الأول بمشاهد الطرف الثاني في لوحة تركيبية، يبرزها مشهد بصري واحد، تزدوج فيه الحرة بالثبات:

حركة الفعل، فعل الصدقة والإنفاق، وحركة الحياة المتمثلة في نماء أشجار الجنة ونخيلها، وجريان أنهارها، وكذا في هبوب الرياح العاصفة التي تسببت في توقف الجانب الحركي في الصورة؛ بسبب عصفها لكل ما هو حي أخضر داخل الجنة، تضاف إلى هذا حركة قوة وفعالية هذا الرجل في خدمة جنته في فترة شبابه، هذا عن الجانب الحركي. وأما عن الجانب البصري الثابت في الصورة، فيتمثل في صورة الشيخ العجوز الذي توقف عن العمل، وفي صورة الخراب الذي حدث لجنته؛ إذ أصبحت ميتة لا حركة أو حيوية تذكر داخل أشجارها ونباتها وثمارها وأنهارها. وهذه الازدواجية تؤدي دورا كبيرا في تحريك النفس الإنسانية؛ لاعتمادها على التشخيص المتضمن لأساليب الترغيب والترهيب: {{وهكذا يقوم المشهد الحي الشاخص بما فيه أول الأمر من رقي ورقة ومتعة، وما فيه من نضارة وروح وجمال، ثم بما يعصف به عصفا من إعصار فيه نار... يقوم هذا المشهد العجيب بالإيحاء الشعوري الرعيب الذي لا يدع مجالا لتردد في الاختيار قبل أن تذهب فرصة الاختيار وقبل أن يصيب الجنة الوارفة الظليلة المثمرة إعصار فيه نارا.}}[1].

(1) في ظلال القرآن -المصدر السابق- م1 -ج3 -ص310

وإذا عدنا إلى سر التركيب المزجي في هذا المثال، لوجدناه في الطرف الأول متمثلا -كما سبق أن بينا- في المعنى دون اللفظ لأن العناصر المذكورة يمكن فصلها عن بعضها البعض، فمثلا نفصل الصدقة المتبوعة بالمن والأذى عن غيرها، ويمكننا أن نقابلها بالطرف الثاني، وهذا فعلا ما ذهب إليه بعض المفسرين إلى القول:{{... والمعنى تمثيل حال من يفعل الحسنة ويضم إليها ما يحيطها كرياء وإيذاء في الحسرة والأسف إذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة بحال من هذا شأنه وأشبههم به...}}[1]. كما يمكن فصل المنفق المرائي ومقابلته بالطرف الثاني، وهذا ما ذهب إليه أحد المفسرين بقوله{{هذا مثل ضرب الله للمرائين بالأعمال يبطلها يوم القيامة أحوج ما كان إليها كمثل رجل له جنة وله أطفال لا ينفعونه فكبروا وأصاب الجنة إعصار..}}[2].

وأما عن سر هذا التركيب المزجي في الطرف الثاني فيكمن في اللفظ والمعنى معا، إذ نجد ألفاظ تساهم كلها دون استثناء في بناء المشهد المركب؛ فمثلا لو أخذنا كل لفظة أو عبارة على حدة، لما استقام معنا المعنى إلا بعد إتمام بقية الألفاظ والعبارات؛ فمثلا لو وقفنا عند عبارة (أيود أحدكم) لتساءلنا ماذا؟ ثم لو أضفنا لها عبارة (أن تكون له جنة) لكان جوابنا على العموم (نعم)، وإذا أضفنا إلى هذه الجنة (من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار فيها من كل الثمرات) لما تم المعنى الذي رمى إليه السؤال. وهكذا الأمر مع بقية الألفاظ والجمل حتى ينتهي هذا التركيب عند آخر وصف لهذه الجنة (فاحترقت)، وهنا يكتمل المعنى وتكتمل الصورة المطلوبة الشاخصة المعبرة عن الهدف الدقيق من وراء السؤال المطروح، وهذا ما يسميه علماء البلاغة بالتشبيه التمثيلي.

إن هذه الوحدة المتكاملة في الأطراف المركبة لا يمكن الاستغناء عنها حتى في التشبيهات المتقابلة، ولكن الفارق يكمن في إمكانية مقابلة عناصر الطرف الأول بما يقابلها في الطرف الثاني كما سبق تبيينه. وإذا بحثنا عن هذا النوع من التشبيهات المركبة المتقابلة في هذه الصورة الرابعة من تشبيهات القرآن الكريم لما وجدناه مجسدا بصورة واضحة،

(1) تفسير البيضاوي - المصدر السابق- ص61.
(2) الجامع لأحكام القرآن -المصدر السابق- م2 -ج3 -ص213.

لأننا لو حاولنا أن نلتمس هذا النوع في المثال الموالي من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾ [النساء] لوجدنا أن التقابل يمكن التماسه في عنصر واحد فقط بشكل واضح وهو عنصر الأكل في الطرفين، لأن عملية الأكل في الطرف الأول ليست مقصودة لذاتها، بل المقصود بها هو الاستهلاك بشكل عام، والذي يؤدي إلى الأكل بطريقة أو أخرى. بينما عملية الأكل في الطرف الثاني هي المقصودة بعينها، والعلاقة بين العمليتين متعددة الجوانب، ومن جملة هذه الجوانب استنفاد ما هو موجود من المادتين المخصصتين للأكل. وإذا أردنا أن نقابل بين عنصري الطرفين المتبقيين من (أموال اليتامى) (والنار) لما وجدنا علاقة بينهما لاختلاف طبيعة مادتيهما، فشتان ما بين المال والنار ولهذا السبب وغيره فضلنا أن يكون هذا المثال ونظرائه داخل إطار التشبيهات المركبة تركيبا مزجيا، لأننا إذا اكتفينا بذكر (إن الذين يأكلون) دون أن نضيف إليها العناصر المتبقية لما تم المعنى، وهكذا لو أضفنا لفظة (أموال) وتركنا الباقي لما استقام المعنى، وينطبق هذا الأمر مع باقي ألفاظ الطرف الأول، والوضع نفسه ينطبق مع الطرف الثاني؛ إذ لو أخذنا لفظة (النار) وهي آخر عنصر ذكر في هذا الطرف لما استقام المعنى، لأن السؤال الذي يطرح هو ماذا؟ بعد (إنما يأكلون في بطونهم) فتضاف إليها (النار) وبها يتم المعنى العام من هذا الطرف الثاني فيكون بهذا الشكل (إنما يأكلون في بطونهم نارا) وعليه تكون الهيأة الأخيرة للصورة التشبيهية الرابعة المركبة تركيبا مزجيا. وبها أيضا ينتهي كلامنا عن النوع الثاني لننتقل إلى معالجة أنماط النوع الثالث من هذه الصورة الرابعة.

النوع الثالث: القلب أو العكس:

لم نعثر إثر تتبعنا لنماذج هذه الصورة –سواء من خلال تطبيقات للقاعدة البلاغية المتعلقة بعملية القلب أو العكس، أو من خلال تتبعنا لشروح المفسرين المختلفة لهذه النماذج– إلا على حالة تشبيهية واحدة تقدم فيها المشبه به عن المشبه، وذلك في آيتين اثنتين هما: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ .. (٤٣)﴾ [الفرقان] و﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ .. (٢٣)﴾ [الجاثية]. وقبل أن نناقش عملية القلب أو العكس نتساءل: هل في هاتين الآيتين صورة تشبيهية؟ أولا وقبل كل شيء. تكاد تجمع آراء المفسرين التي في حوزتنا على وجود صورة

تشبيهية في التعبير القرآني وذلك بتشبيه اتباع الهوى بالعبادة، فكأن الذي يتبع هواه يعبده كما يعبد الرجل إلهه [1]. غير أن هناك من يُجوز إخراج الكلام في هاتين الأيتين مخرج التشبيه والحقيقة معا. وهذا ما يعبر عنه صاحب التحرير بقوله: {{و (إلهه) يجوز أن يكون أطلق على ما يلازم طاعته حتى كأنه معبود فيكون هذا الإطلاق بطريقة التشبيه البليغ، أي اتخذ هواه كإله لا يخالف له أمرا ويجوز أن يبقى (إلهه) على الحقيقة ويكون (هواه) بمعنى مهويه أي عبداً إلهاً لأنه يحب أن يعبده، أي الذين اتخذوا الأصنام آلهة لا يقلعون عن عبادتها لأنهم أحبوها، أي ألفوها وتعلقت قلوبهم بعبادتها}}[2].

وإذا سلمنا مع هذه الآراء بوجود صورة مكررة في الأيتين، فهذا يدفعنا إلى إقرار عملية التقديم والتأخير الموجودة في الآيتين. ولكن هل هذا التقديم والتأخير يكفي لأن يجعل الصورة مقلوبة أو معكوسة؟ إذا بحثنا عن طبيعة عناصر الصورة التشبيهية لوجدنا (الإله) أعظم قدسية من (الهوى)؛ أي أنه أعلى مرتبة في القوة، وتصديره للصورة التشبيهية يعني أنه مشبه، أي أنه أقل درجة من (الهوى) في نظر القاعدة البلاغية. وأن (الهوى) رغم كونه أقل درجة فإنه مشبه به. وعلى هذا الأساس تكون عملية القلب أو العكس واقعة من الناحية الشكلية. وأما من ناحية المضمون فكلام المفسرين لا يؤكد ذلك فالإله لم يشبه بالهوى، وإنما العكس هو الصحيح على حد قول أحدهم: {{أي هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعو إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه}}[3].

ومما تقدم نستطيع القول بأن عملية القلب أو العكس في هذه الصورة التشبيهية تجسدت شكلا ولم تتحقق مضمونا. وبهذا تكون عملية التقديم والتأخير لا تعني مطلقا تشبيه الأعلى بالأدنى قلبا أو عكسا -كما تعارف عليه- على سبيل الغلو والمبالغة.

بهذا القدر اليسير من التحليل ننهي حديثنا عن النوع الثالث لننتقل إلى النوع الرابع والأخير لهذه الصورة الرابعة.

---

(1) ينظر الكشاف -المصدر السابق- م3- ج25 -ص248+ روح المعاني -المصدر السابق- م9- ج25-ص152 -+ صفوة التفاسير -المصدر السابق- م3 -ص186.

(2) التحرير والتنوير - المصدر السابق-ج25- ص358.

(3) الكشاف -المصدر السابق - ج25 -ص248.

النوع الرابع: الجانب الدلالي للألفاظ:

يتشابه الكلام حول دلالات ألفاظ هذه الصورة مع غيره من الصور السابقة، وذلك بحكم الحتمية الطبيعية لكل لفظة، فلا يمكن أن تخلو أي لفظة من معنى دلالي تؤديه، ولهذا فلا نرتقب جِدَّة من مناقشتنا لهذا النوع الأخير الذي تبرز من خلاله الصورة الرابعة، إلا أن هذا لا يمنع من الإشارة إلى أهم السمات البارزة في هذا الجانب الدلالي لألفاظ هذه الصورة من خلال تتبعنا للدلالتين الحسية والمعنوية.

وتجنبا لتكرار -سواء في طرح إشكالية تنوع الجانب الدلالي بين ألفاظ عناصر الصورة الواحد، أو في إعادة سرد النماذج التي سبق التطرق إليها أثناء تتبعنا للأنواع الثلاثة السابقة- سنحاول الوقوف عند أهم الدلالات شيوعا في نماذج هذه الصورة الرابعة انطلاقا من العموم إلى الخصوص: من الدلالة المتجانسة في ألفاظ الصورة الواحدة إلى تنوعها في الطرفين.

أ- الدلالة الحسية:

إن أهم ما ميز ألفاظ تشبيهات هذه الصورة الرابعة هو الجانب الحسي بصفة عامة، سواء انفرد بعناصر الصورة الواحد، وهذا هو الأعم، أو اكتفى بطرف دون آخر. ويغلب الحس البصري على معظم النماذج التي بين أيدينا، وبخاصة الثابت منه؛ فالصورة البصرية الثابتة تبرز جليا في النماذج المفردة المطلقة، وعلى وجه التخصيص في النماذج التي تحمل ثنائية التقرير والتصوير كما سبق أن بينا؛ وللتمثيل لذلك نأخذ قوله تعالى﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]. لقد اعتمدت هذه الصورة التشبيهية صورتين محسوستين مرئيتين؛ الأولى: هي (الأرض) والثانية هي (الفراش) -على اعتبار أنه الفراش المعروف، لا بمعنى المفروش على صيغة المفعولية- وأما الثبات في هاتين الصورتين فيمكن في الهيئة الأخيرة التي استقرت عليها كل من الأرض والفراش؛ فالأرض متحركة ولكن الجانب المأخوذ لها في هذه الصورة هو جانب الثبات والاستقرار. وكذلك الفراش بالرغم من كونه حدث من جراء فعل فاعل إلا أنه استقر وثبت على هيأته الأخيرة. وبهذا الشكل يتكرر

معنا نفس الحدث مع الصور التي يجتمع فيها عنصر الأرض مع (المهد) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا... ﴾ [طه:53] - [الزخرف آية 9]، ومع (البساط) [نوح آية 19]. ولا تختلف هذه الصورة البصرية عن مثيلاتها في مثل اجتماع عناصر كل من (الجبال والأوتاد) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ] وكذا في اجتماع السماء مع البناء في قوله تعالى: ﴿...وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً.. ﴿٢٢﴾﴾ [غافر آية 64- البقرة آية 21] ومثله في اجتماع (الشمس مع السراج) في قوله تعالى: ﴿...ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح] ولا تنحصر الصورة البصرية الثابتة في النماذج المفردة المطلقة فحسب، بل تتعداها إلى النماذج المفردة المقيدة التي نأخذ منها على سبيل المثال قوله تعالى في وصف طبيعة السماء ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء]. فصورتا (السماء والسقف) تدركان بواسطة الحس البصري الثابت، وكذا الأمر في صيغة الحفظ (محفوظا) فهي الأخرى قد أكدت ثبات كل من السماء والسقف، سواء دلت على الحفظ، أي أن السماء والسقف يحفظان ما دونهما، أو أنها دلت على كونهما محفوظتين من التصدع والزوال، وكل يؤدي معنى الحركة، وهذا ما نستشفه من لفظة (منيرا) التي قيّدت لفظة (السراج) المقابلة لشخص النبي ﷺ، في قوله تعالى: [﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب]، فالإنارة رغم كونها تحمل صورة بصرية، إلا أنها في نفس الوقت تدل على الحركة: حركة أشعة الشمس النور التي تنبعث من السراج. والأمر نفسه ينطبق على لفظة (منبثا) التي قيّدت لفظة (الهباء) المقابلة للفظة (الجبال) من قوله تعالى ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة]. نلمس الحركة في هذه الصورة التشبيهية البصرية في لفظتين؛ الأولى: تتمثل في فعل (بُسّت) الذي نرجح أن يكون بمعنى (فتت أو حطمت) كما جاء في التفسير[1]. وهذا هو المعنى المناسب في نظرنا لطبيعة الجبال، لأن التفتت أو التحطم عادة ما يكون للأشياء الصلبة المتماسكة الأجزاء، وعليه تكون الحركة الفعلية واضحة ومكررة مرتين في مقدمة الصورة، ثم تليها النتيجة النهائية التي استقرت عليها الصورة التشبيهية التي وصفت حالة الجبال بعد التفتت وهي هباء منتشرا هنا وهناك، وهذا ما يتراءى للناظر

(1) (أي فتت فتا) مجمع البيان -المصدر السابق-م6 -ج27 -ص112.

بعد زوال الجبال، وهي صورة مرئية بجزئياتها (هباء) حركتها الصفة التي تلتها (منبثا) بمعنى (متفرقا)، والذي يقوي الجانب الحركي في هذه الصفة الطبيعية التي نراها لجزئيات الغبار التي تلوح في خيوط شعاع الشمس.[1]

وقد تعم الحركة الصورة التشبيهية البصرية بطرفيها وذلك ما تبينه عناصر الآية التشبيهية من قوله تعالى في وصف حركة الجبال﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل]. لقد تجاوزت الحس البصري ألفاظ الطرف الأول (وهي تمر) أي (الجبال) إلى ما وراء الرؤية العادية؛ لأن البصر العادي لا يرى حركة الجبال، بل يراها ثابتة. إذا فالحركة في الطرف الاول تكمن خلف ستار الثبات والسكون الذي يُعرف على صورة الجبال في الرؤية العامة لها. وأما الطرف الثاني فهو متحرك بحكم طبيعة السحاب المشاهد بالحس البصري.

ومن أمثلة هذه الصورة أيضا نأخذ قوله تعالى في وصف طريقة شرب أهل النار: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الواقعة]. تظهر الحركة في طرفي هذه الصورة التشبيهية في حركة فعل (الشرب) شرب أهل النار المقابل لشرب الإبل العطشى، وهي يمكن أن تؤخذ في صورة بصرية واضحة المعالم.

وسيطرة الصورة البصرية على الدلالات الحسية لعناصر هذه الصورة الرابعة، لا يمنع أن نلتمس مثالا واحد يكون فيه الحس السمعي هو البارز على عناصره، ويمكن أن نجد ذلك متمثلا في قوله تعالى:﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ...﴿١١﴾﴾ [الإسراء]؛ يضم الطرف الأول صوتا دعويا يتسم بطابع الشر، وهذا الصوت قد يكون مجهورا فيسمع من قبل الناس، أو يكون مستترا خفيا فيطلع الله تعالى عليه. وكذلك الأمر مع الدعاء الثاني الذي يتسم بطابع الخير. إذا فحاسة السمع هي الأداة التي تستقبل صوت الدعاء وتميز خيره وشره.

---

(1) (أي غبار متفرقا في شعاع الشمس إذا دخل من الكوة) مجمع البيان -المصدر السابق-م6 -ج27 - ص113.

كل هذه النماذج التي أوردناها تمثل الطابع الحسي الذي ميز عناصر الصورة التشبيهية بصفة عامة، وأما النماذج التي يزدوج فيها الجانب الحسي مع الجانب المعنوي في عناصر الصورة التشبيهية الواحدة فسنتناولها أثناء معالجتنا للجانب الدلالي المعنوي.

ب- الدلالة المعنوية:

لو نعثر من خلال النماذج التي بين أيدينا على أي صورة تشبيهية يستقل فيها الجانب المعنوي في جميع عناصره، ولكن الشيء الذي وقفنا عليه هو الازدواجية التي أشرنا إليها قبل قليل، والتي تتعلق بتزاوج الدلالتين معا، المعنوية والحسية في عناصر الصورة الواحد، وحتى هذه النماذج فإنها قليلة بعكس ما لا حظناه في نماذج الصورة السابقة. ولعل هذه القلة تعود إلى تميز هذه الصورة الرابعة بطابع الثنائية (التقريرية والتصويرية) كما سبق توضيحه في النماذج السابقة. ولتوضيح هذا الصنف من الصور التشبيهية نكتفي بعرض مثالين على سبيل التمثيل لا الحصر؛ وأول مثال نأخذه قوله تعالى في تبيين حقيقة الحياة: ﴿...وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران آية]. تمثل (الحياة الدنيا) الجانب المعنوي في هذه الصورة بالرغم من كونها تضم الأشياء المادية والمعنوية معا، إلا أن هذه الأخيرة هي التي غلبت على حقيقتها، بينما يمثل (المتاع) الجانب الحسي في هذه الصورة، فهو الشيء المادي الذي يستعين به الإنسان في حياته اليومية. وأما صفة (الغرور) أو الغرر، فهي التي تقيّد المتاع الدنيوي الزائل. والأمر نفسه يمكن تطبيقه على قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ.. ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام]؛ فالحياة سبق تعريفها وهي الجانب المعنوي، بينما تمثل لفظتا (اللهو واللعب) -وهما فعلان حركيان يقوم بهما الإنسان- الجانب الحسي في هذه الصورة التشبيهية.

بهذا القدر اليسير من معالجة الدلالتين الحسية والمعنوية للعناصر المكونة للصورة الرابعة، نكون قد أتينا على نهاية حديثنا عن أنماط الصورة التشبيهية الفنية الأربعة في القرآن الكريم.

الخلاصة

يُستحسن أن لا نضع لهذه المدارسة خلاصة، وأن نتركها كما هي عليه موضوعاً ومنهاجاً؛ لأنها في حقيقتها الوجه التطبيقي لما نظَّر له أهل البلاغة العربية في عملية التصوير البياني عن طريق إقامة علاقة المماثلة أو المشابهة؛ فهي مجال خصبٌ لكل من أراد أن يلتمس أمثلة تطبيقية لأي صورة من صور التشبيه المعروفة والمتداولة في كلام العرب شعره ونثره.

وهي في الوقت ذاته - المدارسة - تتسم بالمصداقية العلمية، لأنها اعتمدت في انتقاء الأمثلة والاستشهاد بها على نتائج الإحصاء الدقيق والشامل لكل ما احتواه خطاب القرآن الكريم من أنماط تشبيهية، وذلك بعد تمحيصها وفرزها وتمييز ما هو حاوٍ للتصوير الفني، عما هو حاوٍ للتصوير الحقيقي، أي على حدِّ قول أهل البلاغة، بين ما هو تشبيه مجازي وبين ما هو تشبيه حقيقي.

ولا تعدم هذه المدارسة - إضافة إلى ما سبق- أن تكون قد وضعت بين يدي القارئ الكريم آراء مختلفة للمفسرين في تخريج كثير من أنواع التصوير القرآني؛ فمنها ما كان يختلف عن الآخر في كون الصورة قائمة على وجه المشابهة المؤدية إلى الاستعارة، أو هي قائمة على نمط المشابهة المؤدية إلى التشبيه المبالغ فيه (البليغ). وهو نمط الصورة الرابعة، كما كان الاختلاف بينها حول ما هو تصوير على وجه الحقيقة، وبين ما هو تصوير على وجه المجاز. وبتعبير آخر بين ما هو حاملٌ للمبالغة التصويرية وبين ما هو خال من هذه المبالغة.

وهي بهذا تكون - هذه المدارسة - قد سلكت منهجا موضوعيا محايداً في التحليل والتأويل للصورة بنوعيها الحقيقي والمجازي، وذلك بسرد مختلف الآراء، وترجيح ما هو قريب من واقعية الصورة وجمالياتها، وهي طريقة تبدو علمية تستند إلى الأدلة المختلفة التي يفرضها السياق الداخلي والخارجي لأسلوب الخطاب القرآني.

فالموضوعية إذًا هي ديدن هذه المدارسة في تقصي التراكيب المختلفة، لأساليب المشابهة برمتها، ثم المفاضلة بينها، ثم تحليلها تحليلا علميا فنيا مستندا على النسق الذي نُظم

على منواله أسلوب الخطاب القرآني في تركيب الجمل الواقع فيها التصوير الفني المبني على علاقة المماثلة بين طرفي الصورة التشبيهية.

تلك هي بعض الملاحظات العامة التي نُلفت إليها انتباه القارئ، إلى جانب ملاحظات أخرى فرضتها عملية الإحصاء الشامل لأنماط الصور التشبيهية الأربعة، وتتعلق بنسب تواجدها في الخطاب القرآني. وعليه يمكن القول بما يلي:

1- يندر العثور على أنماط الصورة الأولى المصرح فيها بالأركان الأربعة في القرآن الكريم، ولعل ذلك يعود إلى كونها أكثر تفصيلا وتصريحاً بوجه المشابهة بين طرفي الصورة.

2- تقل أنماط الصورة الثانية التي تحذف فيها الأداة فقط، ويصرح فيها بوجه الشبه في مجموع ما تم العثور عليه من أمثلة قرآنية، وذلك بعد عملية إحصاء التراكيب ذات الطابع التشبيهي الفني. ولعل هذا يعود إلى كونها - هذه الصورة - لا تختلف عن الأولى إلا بحذف الأداة، وإبقاء وجه الشبه عائقا لفنية الإبهام في البحث عما يجمع بين الطرفين المتقابلين في هذه الصورة.

3- تكثر أضرب وأنماط الصورة الثالثة - التي يُغيب فيها وجه الشبه - في أساليب الخطاب القرآني، وهي الأكثر احتواء على الجانب التركيبي، وبخاصة في طرفها الثاني (المشبه به). مما زادها قوة بيانية فنية جمالية في التقريب بين طرفيها المشبه والمشبه به.

ولكونها - الصورة الثالثة - هي الغالبة على أمثلة القرآن الكريم التشبيهية، فقد خصت بدراسة مطولة أبانت عن تنوعٍ لأدوات التشبيه التي وُظفت فيها مثل (الكاف، وكأن، ومثل). وأفرزت عن توفرها علَى ما يسمى بالوحدة العضوية والوحدة الموضوعية في أطرافها المركبة المتعددة العبارات والجمل، والتي تتحد في ما بينها لتكوّن في مجملها صورة تشبيهية ذات طابع فني.

4- تأتي الصورة الرابعة في المركز الثاني بعد الصورة الثالثة من حيث توفرها في الخطاب القرآني، وذلك بالرغم من كونها تحتوي على المبالغة أكثر من سابقتها (الثالثة) لأنها تخلو من الأداة ووجه الشبه.

تلك هي – بإيجاز – بعض الملاحظات التي رأيناها تحيط بما تمت مدارسته من أساليب الخطاب القرآني، في تواصله مع المخاطب العربي، عن طريق توظيف الصورة المبنية على علاقة المشابهة ذات الطابع التصويري الفني، في تبليغ الرسالة الربانية المُنظِّمة لحياة البشر بشقيها الدنيوي والأخروي.

إن أصبنا فمن الله وإن أخطأنا فمن أنفسنا والشيطان

– و الله نسأل التوفيق–

د/ أحمد بلخضر

المصادر والمراجع

1- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار السروق، 1406هـ، ط11.

2- الكشاف، الزمخشري، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان.

3- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي بن حسن الطبرسي، دار مكتبة الحياة بيروت.

4- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1989م، ج3.

5- المثل السائر، ابن الأثير، تقديم وتحقيق وشرح أحمد الحوفي وبدوي طباقة، منشورات دار الرفاعي الرياض، 1403هـ، 1983م.

6- الصناعتان، أبو هلال العسكري، تحقيق مفيد، دار الكتب العلمية، بيروت 1404هـ- 1981م، ط3.

7- روح المعاني، محمد الألوسي البغدادي، دار الفكر بيروت، 1403هـ- 1983م.

8- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1996م.

9- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القروني، شرح وتعليق وتنقيع عبد المنعم ضفاجي، دار الفكر دمشق، 1405هـ- 1985م، ط2.

10- فن التشبيه (بلاغة، أدب، نقد)علي الجندي، مكتبة الإنجلو المصرية 1386هـ- 1966م، ط6.

11- الديوان، البحتري، تحقيق حسن كامل الصرفي، دار المعارف بمصر، ط2.

12- أمثال القرآنية، عبد الرحمان حسن حنكية، دار القلم، دمشق، 1400هـ- 1980م، ط1.

13- الديوان، بشار بن برد، تحقيق الطاهر بن عاشور، نشر الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الجزائرية للنشر والتوزيع.

14- المثل السائر، ابن الأثير، تقديم وتحقيق وشرح أحمد الحوفي، وبدوي طبانة منشورات دار الرفاعي الرياض، 1403هـ-1983م.

15-عروس الأفراح، ضمن شروح التلخيص، بهاء الدين السبكي، مطبعة السعادة مصر، 1342هـ- ط2. (البهاء السبكي وآراؤه النقدية، د عبد الفتاح لاشين، دار الطباعة المحمدية الأزهر، 1389هـ- 1978م، ط1).

16-أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، 1399هـ-1979م.

17-التفسير الكبير فخر الدين الرازي، دار الفكر للطباعة النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1403هـ-1983م.

18- تفسير ابن كثير.

19- القرآن والصور البيانية، عبد القادر حسين، دار النهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة.

20- بديع القرآن، ابن أبي الأصبع المصر تحقيق محمد شرف مكتبة نهضة مصر، الفجالة.

21- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تحقيق وتقديم بركات أبو علي، دار الفكر للتوزيع والنشر عمان الأردن، 1989م.

22- صفوة التفاسير.

23- تفسير البيضاوي، دار الفكر، بيروت لبنان.

24- التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، حنفي أحمد، دار المعارف، بمصر ط3.

25- مجمع البيان في تفسير القرآن أبو عبيدة، عارضة بأصوله وعلق على حواشيه محمد فؤاد شركين، مؤسسة الرسالة، 1401هـ- 1981م، ط2.

26-الديوان النابغة الذبياني، دار بيروت للطباعة والنشر 1402هـ-1982م.

27-الديوان، الأعشى الأكبر، شرح محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، بيروت، 1968م.

فهرس الموضوعات

هذا الكتاب

هذه الدارسة قد سلكت منهجا موضوعيا محايداً في التحليل و التأويل للصورة بنوعيها الحقيقي و المجازي، وذلك بسرد مختلف الآراء، وترجيح ما هو قريب من واقعية الصورة و جمالياتها، وهي طريقة تبدو علمية تستند إلى الأدلة المختلفة التي يفرضها السياق الداخلي و الخارجي لأسلوب الخطاب القرآني.

فالموضوعية إذن هي ديدن هذه الدارسة في تقصي التراكيب المختلفة، لأساليب المشابهة برمتها، ثم المفاضلة بينها، ثم تحليلها تحليلا علميا فنيا مستندا على النسق الذي نُظم على منواله أسلوب الخطاب القرآني في تركيب الجمل الواقع فيها التصوير الفني المبني على علاقة المماثلة بين طرفي الصورة التشبيهية.

تلك هي – بإيجاز- بعض الملاحظات التي رأيناها تحيط بما تمت دارسته من أساليب الخطاب القرآني، في تواصله مع المخاطب العربي، عن طريق توظيف الصورة المبنية على علاقة المشابهة ذات الطابع التصويري الفني، في تبليغ الرسالة الربانية المُنظّمة لحياة البشر بشقيها الدنيوي و الأخروي.

